ومِـنْ فِـتَنِ الـدنيا أجرنـا تكرمـاً ومـن كـل هـول في المعـاد مهـول

وصلى الله على سيدنا محمد النبيّ الأميّ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

المجلس الحادي والأربعون

في مناقب الصالحين رضي الله عنهم أجمعين

الحمد لله الذي رفع السماء بقدرته ، وأدار دوائر الأفلاك وبسط الأرض بمشيئته ، ومهدها للسلاك ، وسخر الفلك ومهد الملك ، ودبر الأملاك ، الحيّ القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم الذي خلق الموت والحياة ، وقدر النجاة والهلاك القديم الخلاق ، الذي له الخلق والأمر ، وبيده الإطلاق والإمساك ، الذي أنشأ اللوح والقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم ، ووهب له العقل الكامل والفهم والإدراك ، منقذ الغرقى من لجج البحار بعد معاينة الأخطار والهلاك ، ومنجي الهلكى بعد انقطاع الحيل و الاستدراك ، ومطلق الأسرى من القيود الشديدة الوثاق ، ومسعفهم بالإطلاق والفكاك ، الغني عن العباد يأمرهم بالطاعة والإيمان ، ولا يرضى لهم الكفر والإشراك ، الذي لا تنفعه الطاعة ، ولا تضره المعصية ، وإنما يأمرك أيها العاصي بطاعته وعن معصيته ينهاك ، ليريك بعين يقينك ويبين لك أمر دينك ودنياك ، فراقبه واتقه واحذر من معاصيه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وحافظ على الصلوات التي بها أمرك وأوصاك ، وقف بين يديه في الأسحار بالذلة والانكسار وقد جاد عليك بنعمه الغزار وبلغك مقصودك ومناك ، أما أحسن منشاك ومرباك ، أما أعزك وأكرم مثواك ، أما ألهمك رشدك وتقواك ، أما وهب لك العقل وإلى الإيمان هداك ، أما خوّلك في نعمه وأعطاك ، أما أمرك بطاعته ووصاك ، أما حذرك عن معصيته ونهاك ، أما دعاك إلى بابه وناداك ، أما أيقظك في السحر بلطيف خطابه وناجاك ، أما وعدك بالفوز والجزاء في أخراك ، أما سألته ودعوته فأجاب سؤالك ودعاك ، أما استغثت به في الشدائد فأغاثك منها ونجاك ، أما عصيته فسترك بذيل حلمه وغطاك ، أما أغضبته مراراً وأرضاك ، أفيستحق منك أن تبارزه بذنوبك وخطاياك ، ويمدك برزقه وتمد إلى معصيته خطاك ، وتستخفي من الناس ولا تستخفي من الله وقد شاهدك ورآك ، إلى متى أنت غريق في بحر غيك وهواك ، إن أردت النجاة فاركب سفينة الندم واقلع بريح التوبة إلى مولاك ، وألق نفسك إلى ساحل الإخلاص وقد جاد عليك بالإخلاص ونجاك .

[كان وكان]

يا من يعاهد وينكث ... خف من إلهك واستحي ... واذكر هجوم المنايا
فما المراد سواك ... إلى متى أنت غافل ... تنسى مصيرك في الثرى
وأنت في اللحد وحدك ... وقد جفاك أخاك ... إن كنت عاصي مثلي
افق وقم وابكي معي ... على الذنوب والخطايا ... عسى تنال مناك
عند استماع الملاهي ... تحضر بنية صادقة ... وفي صلاة توسوس
قل لي فمن أغواك ... احذر مصايد ذنوبك ... فكم رمت لك من شرك
تروم صيدك وكيدك ... وشقوتك وأذاك ... ويحك تنبه لنفسك
واعمل لما تلقى غداً ... إذا أتيت القيامة ... وقامت الأملاك
وقمت تقرأ كتابك ... خجلان من قبح الزلل ... وما كفى ذاك حتى
تشهد عليك أعضاك ... وإن أتيت جهنم ... استقبلك زبانية
وقال مالك مالك ... غفلت عن مولاك ... تذكر غرور الدنيا
وتذكر الذنب الردى ... لم لا سبقت بتوبة ... هذا العذاب يداك
كم كنت تجني وتأمن ... ولم تخف ربّ السما ... هذا الذي قد لقيته
بما جنته يداك ... كم قد سمعت المواعظ ... تتلى وما عندك خبر
ولا جرت لك دمعة ... ويحك فما أقساك ... إن كنت أضمرت توبة
فهذه أوقاتها ... فانهض بعزم صادق ... وتب إلى مولاك
وقل إلهي إني ... أخطأت فاغفر زلتي ... فمن يجير العاصي
من الذنوب سواك ... وليس لي من وسيلة ... إليك إلا المصطفى
ومن إليك رفعته ... دون الورى ورآك ... صلى عليه وسلم
رب السموات العلى ... وآله والصحابه ... السادة النساك

سبحان من نظر بعين اصطفائه إلى خاصة عبيده ، وجعل قلوبهم بيوت توحيده ، وسرائرهم مقرًّا تفريده ، وصدورهم مصادر ذكره وتمجيده ، فكلما طلع لهم من أفق التوفيق طالع ، أو لمع لهم من بروق التحقيق لامع ، انشرحت القلوب لذكر المحبوب ، فطاب لها المشروب وكشف لها المحجوب . قال أبو زيد رحمه الله : ما زلت أسوق نفسي إلى الله تعالى وهي تبكي إلى أن سقتها إليه وهي تضحك فمن عرف الله ذلّ له كل شيء . وقال الأصمعي رحمه الله : خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام من طريق الشام فبينا نحن سائرون ، إذ خرج علينا أسد عظيم الخلقة هائل المنظر فقطع على الركب الطريق . فقلت لرجل إلى جانبي : أما في هذا الركب رجل يأخذ سيفاً ويردّ عنا هذا الأسد ؟ فقال : أما رجل فلا أعرف ، لكنني أعرف امرأة ترده عنا بغير سيف ، فقلت : وأين هي ؟ فقام وقمت معه إلى هودج قريب منا ، فنادى : يا بنية

انزلي وردي عنا هذا الأسد ، فقالت : يا أبت أيطيق قلبك أن ينظر إليّ الأسد وهو ذكر وأنا أنثى ؟ ولكن يا أبت قل للأسد : ابنتي فاطمة تقرئك السلام وتقسم عليك بالذي لا تأخذه سنة ولا نوم إلا ما عدلت عن طريق القوم . قال الأصمعي : فوالله ما استتم كلامها حتى رأيت الأسد ذاهباً أمامها ، هذه والله دلائل الصالحين ، وهذه أمارات العارفين :

فاز قوم رقوا سماء المعالي ... باجتهاد لهم وحسن الفعل ... فبهم تدفع الخطوب عيانا
وبهم قد بدت شموس الجمال ... كل من لم تكن دعاويه حقاً ... فضحته شواهد الأحوال
ويك يا قاصر العزيمة هذا ... مورد الأسد مرتع الأشبال ... ما وصال الحبيب سهل ولكن
إن ترد فابذل العزيز الغالي ... يا ضعيف السلوك هذا طريق ... فيه دون الوصال حد النصال
فتجرد عن الدنا وتفرد ... ذاك زاد من خالص الأعمال ... ثم لابد من دليل بصير
ومعين على صروف الليالي ... فإذا خفت من إلهك خافت ... منك أسد الثرى مع الأبطال

[قال سعيد بن إسحاق البصري رحمه الله] : دخلت في السحر إلى بئر زمزم ، فإذا شيخ قد أتى البئر فملأ الدلو وشرب فأخذت فضلته وشربتها فإذا هو سويق وسكر لم أذق قط أطيب منه ، ثم التفت فإذا الشيخ قد ذهب ثم عدت من الغد في السحر إلى بئر زمزم فإذا الشيخ قد دخل وملأ الدلو وشرب فشربت فضلته فإذا الماء مضروب بالعسل والطيب لم أذق أطيب منه ، ثم التفتّ فإذا الشيخ قد ذهب ، ثم عدت من الغد في السحر إلى بئر زمزم فإذا الشيخ قد دخل فملأ الدلو وشرب فأخذت فضلته فشربتها فإذا لبن مضروب بالسكر لم أذق أطيب منه ، فقلت له : يا شيخ بحرمة هذا البيت عليك من أنت ؟ قال : أَوَ تكتم ذلك حتى أموت ؟ قلت : نعم ، قال : أنا سفيان الثوري :

بذكرك يا رب الورى نتنعم ... فقد خاب قوم عن سبيلك قد عموا
ألست الذي قربت قوماً فوافقوا ... ووفقتهم حتى أنابوا وأسلموا
وقلت استقيموا منة وتكرّما ... فأنت الذي قومتهم فتقوّموا
لهم في الدجى أنس بذكرك دائماً ... فهم في الدياجي ساجدون وقوّم
نظرت إليهم نظرة بتعطف ... فعاشوا بها والخلق سكرى ونوّم
لك الحمد عاملنا بما أنت أهله ... وسامح وسلمنا فأنت المسلم

[قال أبو يوسف الغلسوني رحمه الله] : كنت يوماً جالساً بمسجد الشام فدخل علي إبراهيم ابن أدهم ، فقال لي : يا غسلوني رأيت اليوم عجباً . قلت : ما هو يا أبا إسحاق ؟ قال : وقفت على قبر من هذه المقابر ، فانشق لي عن شيخ خضيب ، فقال لي : يا إبراهيم سل فإن الله عز وجل قد أحياني من أجلك . قلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : أتيت الله عز وجل

بعمل قبيح ، فقال لي : قد غفرت لك بثلاث : لقيتني وأنت تحبّ من أحبّ ، ولقيتني وليس في صدرك مثقال ذرّة من شراب حرام ، ولقيتني وأنت خضيب وأنا أستحي من شيبة الخضيب أن أعذبها بالنار . قال : ثم التأم القبر على الشيخ . قال الغلسوني : قلت : يا أبا إسحاق ألا توافقني في زيارة هذا القبر . فقال : ويحك يا غلسوني عامل الله يرك العجائب ، واشتغل بحبه عن جميع الأجانب :

لو يعلم الناس عمن اشتغلوا ... لما تهنوا بما به اشتغلوا ... بالأهل جادوا وكل ما ملكوا
والمال في حبه وما بخلوا ... عاشوا وفازوا هم الملوك وإن ... ذلوا وإن أملقوا وإن خملوا
لله قوم بالروح قد سمحوا ... واستصغروا قدرها وما جهلوا ... ذاقوا مدام الهيام فيه ولم
يحل لهم منزل ولا طلل ... وما تفانوا عن الوجود سدى ... إذ هم على قصدهم لقد حصلوا

[قال الليث بن سعد رحمه الله] : حججت في بعض السنين . فلما أتيت مكة صليت العصر ، ثم طلعت إلى جبل أبي قبيس فإذا أنا برجل جالس وهو يدعو ، فقال : يا رب يا رب حتى انقطع نفسه ، ثم قال : يا الله يا الله حتى انقطع نفسه ، ثم قال : يا حي يا قيوم حتى انقطع نفسه ، ثم قال : يا رحمن يا رحمن حتى انقطع نفسه ، ثم قال : ياأرحم الراحمين حتى انقطع نفسه . فلما فرغ قال : اللهم إني أشتهي العنب فأطعمنيه وإن بردي قد خلق فأكسني . قال الليث : فوالله ما استتم كلامه حتى نظرت إلى سلة مملوءة عنب وليس على الأرض عنب يومئذ وبردين موضوعين فأراد أن يأكل فقلت : أنا شريكك ، فقال : ولم ؟ فقلت : لأنك دعوت كنت أنا أؤمن ، فقال لي : تقدم وسمّ الله تعالى وكل ولا تدخر منه شيئاً فتقدمت فأكلت فإذا عنب لا عجم فيه لم آكل قط أطيب منه فأكلت حتى شبعت والسلة لم تنقص شيئاً ثم قال لي : خذ أحب البردين إليك ، فقلت : أما البردان فأنا غنيّ عنهما ، ثم قال لي : توار عني حتى ألبسهما فتواريت عنه فاتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ، ثم أخذ البردين الذين كانا عليه فجعلهما على يديه ومضى فتبعته حتى أتى المسعى فلقيه رجل ، فقال له : اكسني كساك الله يابْنَ عم رسول الله ﷺ ، فدفعهما إليه فلحقت الرجل . فقلت له : من هذا يرحمك الله ؟ قال : هذا جعفر بن محمد ، قال الليث : فطلبته فلم أجده فتأسفت على فراقه :

أسائل الشمس عنكم كلما طلعت ... وأسأل البرق عنكم كلما لمعا
لو منّ دهري على طرفي برؤيتكم ... لكان أحسن إذ ما بيننا جمعا
لا تحسبوا أنني بالغير مشتغل ... إن الفؤاد لحبّ الغير ما وسعا
مالي سوى عفوكم يا سادتي كرمًا ... فالعبد في حبكم ثوب الهوى خلعا
منوا عليه بعفو منكمو كرمًا ... فالذنب قطع منه قلبه قطعا

[قال أبو نصير الصياد] : مرّ بي بشر الحافي رحمه الله وأنا على باب الجامع وقد انصرف الناس من صلاة الجمعة ، فقال : ما لي أراك في هذا الوقت ؟ قلت : ما في البيت دقيق ولا خبز ولا درهم ولا شيء يباع ، فقال : بالله المستعان احمل شبكتك وتعال إلى الخندق . قال : فحملتها وذهبت معه ، فلما وصلنا إلى الخندق ، قال لي : توضأ وصلّ ركعتين ففعلت ، فقال : سمّ الله تعالى وألق الشبكة ، فسميت الله تعالى وألقيتها فوقع فيها شيء ثقيل ، قال : فجعلت أجرّه فصعب عليّ ، فقلت له : ساعدني وأعني فإني أخاف أن تنقطع الشبكة ، فجاء وجرّ الشبكة معي فإذا فيها سمكة هائلة ، فقال لي : خذها وبعها واشتر بها مصالح عيالك ، قال : فحملتها إلى الباب فاستقبلني رجل ، فقال : بكم هذه السمكة ؟ فقلت بعشرة دراهم ، فقال : اشتريت فوزن لي عشرة دراهم فاشتريت لأهلي ما يحتاجون إليه ، ثم أخذت رقاقتين وجعلت فيهما من الحلوى وأتيت بهما إليه فطرقت الباب ، فقال : من ؟ فقلت : أبو نصر ، فقال : افتح الباب وضع ما معك في الدهليز وادخل ، قال : فدخلت إليه وحدثته بما صنعت ، فقال : الحمد لله على ذلك ، فقلت : إني هيّأت للبيت شيئاً ، وقد أكلوا وأكلت معهم ومعي رقاقتان فيهما حلوى ، فقال : يا أبا نصر لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرج السمك ، اذهب فكله أنت وعيالك :

حاشاك يا ذا الفضل والامتنان أخاف ضيقاً وبك المستعان قد سوّد العصيان وجهي
رحت أسير القلب واللسان فمن مجيري من ذنوب بها قد انقضى العمر وضاع الزمان
ما لي سوى عفوك يا سيدي ومن رجا عفوك نال الأمان

[قال محمد بن أبي الحواري رحمه الله] : كان بالموصل رجل يسمى سعدون ، وكنت أحسن إليه فقلت يوماً : أخبرني ما كان سبب توهلك ؟ فقال : مررت يوماً في سياحتي لعلي أصادف من يجلو قلبي ويعرّفني الطريق إلى ربّي فرأيت رجلاً راكباً على أسد فخفت منه فناداني : أتخاف من مخلوق مثلك ؟ ثم طرد الأسد ومشى فتبعته وسلمت عليه فردّ عليّ السلام ، فقلت له : بالذي أعطاك هذه المنزلة والقرب لديه إلا ما دللتني على الطريق إليه ، فقال : اجعل الدنيا لك سجناً و لآخرة سكناً وحصناً ، وعوّد عينيك البكاء والسهر والزم الخدمة في السحر وكن منه على حذر ، قلت : سيدي زدني . قال : يا سعدون أنت عاقل أم مجنون ؟ والله إذا عَرَّفَكَ الطريق إليه سخر لك الوجود وأذّل لك الأسود ، قلت : سيدي بالذي أطلعك على الأسرار وملأ قلبك بالأنوار إلا ما أذنت لي أن أصبحك بقية هذا النهار ، فقال : على شرط أن تكتم عني ما تراه ما دمت في الحياة . فقال : سمعاً وطاعة ، فقال : امض معي نحضر موت بعض الرجال فسار وسرت معه حتى أتى البحر ففرش رداءه وأمسك بيدي فجلسنا عليه حتى وصلنا

إلى جزيرة في وسط البحر فوجدنا رجلاً ملقى على ظهره وهو يعالج الموت ، فلما قضى نحبه غسله وكفنه وصلينا عليه ودفناه مكانه فقلت له : سيدي من يكون هذا الرجل وما اسمه ؟ فقال : هذا عبد الوهاب وهو من السبعة الأقطاب ، وقد أعطيت مكانه فهممت أن أسأله عن نفسه وعن اسمه فنهرني ثم سار وتركني فبكيت بكاءً شديداً إذ صرت في الجزيرة وحيداً فسمعت قراءة القرآن على القبر وأنا لا أرى أحداً فاستأنست بذلك وجلست على القبر وأنا بين النائم واليقظان فرأيت الشيخ في المنام على هيئة حسنة فقلت له : يا سيدي بالذي جاد عليك بخلع القبول والرضا ما اسم هذا الشخص الذي تركني في هذه الجزيرة وحيداً ومضى فقال : هذا صاحب العلم الرباني عبد الله اليوناني ، وقد أعطي مكاني وفي غد يأتيك ويبلغك أمانيك ولكن إذا اجتمعت به قل له : لا تنس العهد الذي بينك وبينه . قال سعدون : ثم انتبهت ، وقد طلع الفجر فتوضأت وصليت وقرأت شيئاً من القرآن ورنقت فلم أشعر إلا وصاحبي ينبهني فقبلت يديه واعتذرت إليه فأخذ بيدي ومشى إلى البحر إلى أن وصلنا إلى البرّ . فلما هممت بالانصراف قال : وأين وصية الشيخ ؟ فقلت : يا سيدي قد علمتها وهي العهد الذي بينك وبينه ، قال لك لا تنسه ، فقال : ما كنت بالنّاسي لعهده ، فقلت : يا سيدي احملني في هذه ما كان العهد الذي بينك وبينه ؟ قال : عهد إليّ أن أزوره في كل يوم ، فقلت بالذي خصك بمعرفته وشرفك بمحبته زودني بشيء أنتفع به في الدنيا والآخرة ، فقال : اسلك سبيل الهدى ، وجانب أهل الغيّ والردى ، واقنع برزق اليوم ولا تهتم بزرق غداً ، وعامل مولاك بالرضا ،والصبر على البلاء والقضا ثم تركني ومضى . قال سعدون : فهذا كان سبب تولهي عليه وشوقي إليه :

من عرف الله هام وجدا ... وجاء في حبه مجدّا ... تملك الحب منه قلبا
صيره للإله عبدا ... فدمعه في حبه ليس يرقى ... وقلبه منه ليس يهدا
يحسبه الجاهلون فيما ... يرونه جاهداً مكدا ... جانب كل الورى جميعا
وعاش في العالمين فردا ... قد ألف الوحوش لا تراه ... يلهو بعيش ولا بسعدى
لكنه للحبيب عبد ... مشمراً جاء مستعدا ... إن كنت تبغي بهم لحوقا
فابذل لمولاك منه جهدا ... ولا تكن طامعاً بفوز ... ولم ير الله منك كدّا
ولذ بجاه الذي ترقى ... إلى السماء ثم زاد مجدا ... محمد المصطفى رسول
إلى جميع الأنام فردا ... صلى عليه الإله حقّا ... ما قصد القاصدون نجدا

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

[**فصل**] : الحمد لله الذي قرب بعيداً وأبعد قريباً ، وأقصى عدوّا وأدنى حبيباً ، وأذل عاصياً وأعز طائعاً منيباً ، الذي ما دعاه داع إلا وكان بالتلبية مجيباً ، ولا سأله سائل إلا وأعطاه

سؤله ووفر له من فضله نصيباً ، فيا أيها العاصي تذكر وكن نفسك رقيباً ، واعمل ليوم عرضك ومآلك ما دام غصن شبابك غضاً رطيباً ، فإلى متى أنت سقيم بداء زلتك ولا تجد لعلتك شافياً ولا طبيباً ، انهض في ظلم الدياجي وناج من لم يزل سميعاً قريباً ، وتضرع بين يدي مولاك وكن في دنياك غريباً وإلتجىء إلى ظل رحمته مساءً وصاحاً وقف على بابه تجده باباً مباحاً وجناباً رحيباً ، وناد في الأسحار بلسان الاعتذار وقل مقالة من أصبح على ذنوبه حزيناً كئيباً :

أنا العبد الذي كسب الذنوبا ... وصدّته المعاصي أن يتوبا ... أنا العبد الذي أضحى حزينا
على زلاته دفناً كثيبا ... أنا العبد الذي سطرت عليه ... صحائف لم يخف فيها الرقيبا
أنا العبد المسيء عصيت ربّي ... فما لي الآن لا أبدي النحيبا ... أنا العبد المفرط ضاع عمري
ولم أرع الشبيبة والمشيبا ... أنا العبد السقيم من الخطايا ... وقد أقبلت ألتمس الطبيبا
أنا العبد المخلف عن أناس ... حووا من كل معروف نصيبا ... أنا العبد الشريد ظلمت نفسي
وقد وافيت بابكمو منيبا ... أنا العبد الفقير مددت كفي ... إليكم فادفعوا عني الخطوبا

أنا الغدار كم عاهدت عهداً ... وكنت على الوفاء به كذوبا
أنا المهجور هل لي من شفيع ... يكلم في الوصال لي الحبيبا
أنا المقطوع فارحمني وصلني ... ويسر منك لي فرجاً قريبا
أنا المضطر أرجو منك عفواً ... ومن يرجو رضاك فلن يخيبا
فوا أسفاً على عمر تقضى ... ولم أكسب به إلا ذنوبا
وأحذر أن يعاجلني ممات ... يحير هول مصرعه اللبيبا
وواحزناه من حشري ونشري ... ليوم يجعل الولدان شيبا
فيا مولاي جد بالعفو وارحم ... عبيداً ولم أكسب به الذنوبا
وسامح هفوتي وأجب دعائي ... فإنك لم تزل أبداً مجيبا
وشفع فيّ خير الخلق طرّاً ... نبياً لم يزل أبداً حبيبا
هو الهادي المشفع في البرايا ... وكان له رحيماً مستجيبا
عليه من المهيمن كل وقت ... صلاة تملأ الأكوان طيبا

[**إخواني**] ما أحسن حال من التجأ إلى ربّ العالمين ، إخواني ما أطيب حال من انتمى إلى عباده الصالحين ، إخواني ما أحسن حديث المحبين ، إخواني ما أطيب أخبار المتقين ، إخواني ما أربح بضائع العاملين ، إخواني ما أصبح وجوه المجتهدين ، إخواني ما أعطر أنفاس الذاكرين ، إخواني ما ألذ عتاب المشتاقين ، إخواني ما أنفع بكاء المحزونين ، إخواني ما أعذب

مناجاة القائمين ، إخواني ما أمرّ عيش المحجوبين ، إخواني ما أذل نفوس الخاطئين ، إخواني ما أسوأ حال المحرومين ، إخواني ما أعظم حسرة الغافلين ، إخواني ما أشنع عيش المطرودين ، إخواني ما أعمى قلوب الظالمين ، إخواني ما أقبح وجوه العصاة والمذنبين . كان في زمان بني إسرائيل رجل مذنب كلما زاد في ذنوبه وعصيانه أمده الله بوافر رزقه وإحسانه ، فلما سمع كلام موسى عليه السلام وتوبيخه لأهل الذنوب والآثام ، قال : يا موسى ما أرى ربي إلا كلما زدت في معصيته زادني من فضله ونعمته فتعجب موسى من كلامه الذي أبداه ثم صعد إلى المناجاة ، فقال : إلـهي أنت أعلم بما قال عبدك العاصي كلما زاد في العصيان زدته أصناف البرّ والإحسان ، فقال : يا موسى أنا أعذبه ولا يدري ، فقال : يا رب كيف تعذبه وقد بسطت رزقه وأمهلته ؟ فقال : يا موسى عذبته ببعده عني وترك نصيبه مني ، أغفلته عن طاعتي ، أنمته عن لذة مناجاتي ، ولأحرمته في السحر لذة عتابي ، وطيب مناداتي وخطابي ، فوعزتي وجلالي لأذيقنه وبيل عذابي ، ولأحرمنه جزيل ثوابي ، يا هذا إذا رأيت المبارزين بالخطايا قد اتسع لهم مجال الإمهال فلا تستعجل لهم إنما نملي لهم لقد فرحوا بما يوجب الغمّ من اللذات ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ : [المؤمنين : ٥٥ ـ ٥٦] . بينا أرض إعراضهم قد أخذت زخرفها وازينت ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ ﴾ : [يونس : ٢٤] . يا معشر الغافلين في لذاتهم ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ : [النبأ : ٤٠] واخجلتهم يوم ينبئهم الله بما عملوا ، والله بكل شيء عليم :

واخجلة العبد من إحسان سيده ... يا حسرة القلب من ألطاف معناه
وكم له من أياد غير واحدة ... عندي وأعصيه جهراً ثم أنساه
وكم أسأت وبالإحسان قابلني ... واخجلتي واحيائي حين ألقاه
وكم عكفت على العصيان مستتراً ... ممن سواه وما في الكون إلا هو
يرعى الذمام ويولي الفضل مبتدراً ... لا كان في الناس عبد ليس يرعاه
يا نفس كم بخفيّ اللطف عاملني ... وقد رآني على ما ليس يرضاه
يا نفس كم زلة زلت بها قدمي ... وما أقال عثاري إلا إياه
يا نفس توبي إلى مولاك واجتهدي ... عسى تنالي مناكي عند لقياه

[**إخواني**] تفكروا في عواقب الذنوب ، كيف تفنى اللذات وتبقى العيوب ، بالله عليكم احذروا طلب المعاصي فبئس المطلوب ، ما أقبح آثارها في الوجوه والقلوب ، فللّه درّ من أحسن سريرته وأخلى من الذنوب صحيفته ، وأخلص لله سره وعلانيته . روى أن عيسى ابن

مريم عليها السلام خرج ليستسقي بالناس فأوحى الله تعالى إليه لا تستسق ومعك خطاؤون فأخبرهم عيسى بذلك ونادى فيهم : ألا من كان معنا من أهل الذنوب والخطايا فليعتزل ، قال : فاعتزل الناس كلهم إلا رجل مصاب بعينه اليمنى ، فقال له عيسى عليه السلام : لم لا تعتزل مع الناس ؟ فقال : يا روح الله إني لم أعص الله طرفة عين ، ولقد التفت فنظرت بعيني هذه إلى قدم امرأة من غير قصد فقلعتها ولو كنت نظرت بالعين الأخرى لقلعتها . قال : فبكى عيسى عليه السلام حتى ابتلت لحيته من دموعه ، ثم قال : فادع الله لنا قال : معاذ الله أن أدعو وأنت روح الله وكلمته فرفع عيسى عليه السلام يديه ، وقال : اللهم إنك خلقتنا وتكفلت بأرزاقنا فأرسل السماء علينا مدراراً فما استتمّ عيسى عليه السلام دعاءه حتى نزل الغيث وعمّ العباد والبلاد :

يا من عليه مدى الأيام معتمدي ... إليك وجهت وجهي لا إلى أحد
أنت المجيب لمن يدعوك يا أملي ... يا عدتي يا شفا دائي ويا سندي
يا مالك الملك يا معطي الجزيل لمن ... يرجو نداه بلا حصر ولا عدد
مالي سواك ومالي غير بابك يا ... مولاي فامح بعفو ما جنته يدي
أنعم وأمطر علينا رحمة فلنا ... عوائد منك بالإحسان والمدد
وانظر إلينا فكم أوليتنا نعماً ... ما إن تمرّ على بال ولا خلد
يا من أجاب دعائي عند مسألتي ... ومن عليه وإن أخطأت معتمدي
ثم الصلاة على المختار من مضر ... ما ناحت الورق في غصن مدى الأبد

[**إخواني**] لقد وعظتنا الدهور ، بمرّ الأيام والشهور ، ورأينا الحزن عقب السرور ، وعلمنا أن الزمان بأهله عثور ، وتيقنا أن آخر الأمر إلى القبور ، فالعامل بالتقى مشكور ؛ كم كسفت الدنيا من بدور ، وكم أخلت من أهلها من دور وقصور ، أعمى في الأبصار أم في عور ؟ ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ : [الحج : ٤٦] .

تصرمت الحياة بغير نفع ... فما صنعي وقد وافى نذيري
وأعمالي وطاعاتي وبرّي ... غرور في غرور في غرور
وصبري والأمانة وارتجاعي ... عسير في عسير في عسير
وجرمي والإساءة والتعدي ... كبير في كبير في كبير
وسعيي واجتهادي واعتذاري ... صغير في صغير في صغير
ورحمته وعفو واغتفار ... كثير في كثير في كثير

قيل : كان في البصرة شاب يقال له رضوان ، كثير اللهو والعصيان ، والتيه والطغيان ،

يبيت الليالي بالخمر سكران ، قد غلبت عليه شقوته وأغواه الشيطان ، فبينما هو في بعض الأيام معتكف على شرب المدام ، ومعه جماعة من أصحابه الموافقين له على الذنوب و الآثام ، إذ سمع رجلاً فقيراً ينشد في الطريق :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل لمحة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

فبكى الشاب وقال : بالله عليك يا فقير إلا ما أعدت إليّ قولك فأعاده فأقسم عليه الشاب أن يحضر مجلسهم فحضر فقال له : والله يا سيدي لقد سعدنا برؤياك وأعجبنا صوتك وحسن غناك ، فغنّ لنا وطيب عيشنا فأنشد الفقير وقال :

تعصي الإله وأنت تأكل رزقه ويراك إذ من خلقه تتكتم
فاحذر فما حاولت أمراً منكراً إلا وينظره لديك ويعلم

فبكى الشاب وخرّ مغشياً عليه ، فلما أفاق من غشيته كسر أواني الخمر وأقبل على الفقير وقال : يا سيدي هل من توبة ؟ فأنشد :

هذا زمان الصلح ما أقعدك عن باب من للخير قد عوّدك
فإن محوت اليوم ما سطرت أيدي خطاياك فما أسعدك

فصرخ الشاب ورمى نفسه إلى الأرض مغشياً عليه ، فلما أفاق قال : سيدي هل يؤاخذني بما مضى ؟ فأنشد وقال :

لله ما أطيب صفو الوداد وما ألذّ القرب بعد البعاد وما أشدّ الهجر من بعدما
قد كنت من جملة أهل الوداد يا ناسياً للعهد عاملتنا ثم تعللت بطيب الرقاد

بمن تشاغلت وأين الذي حصلت كلا بل حرمت المراد
شمر من اليوم ودع ما مضى وكن فقيراً ما مضى لا يعاد

فبكى الشاب وبكى أصحابه ثم تابوا وخلعوا ما عليهم من لباس الزينة وتاب الشاب إلى ربه وندم على قبيح ذنبه وبات ليلته بحضرة الفقير في بكاء ونحيب وحسرات وزفرات ، فلما كان وقت السحر ذكر ذنوبه والسيئات فصرخ وأسبل العبرات ، ثم غشي عليه فحركه الفقير فإذا به قد مات :

أجلّ ذنوبي عند عفوك سيدي حقير وإن كانت ذنوبي عظائما
فما زلت غفاراً وما زلت راحماً وما زلت ستاراً عليّ الجرائما
لئن كنت قد تابعت جهلي في الهوى وقضيت أوطار البطالة هائما
فها أنا قد أقررت يا رب بالذي جنيت وقد أصبحت حيران نادما

فتب واعف عني يا إلّهي تكرماً وكن لي يا ربّ البرية راحما

[**إخواني**] إلى كم تضيعون السنن والفرائض ، إلى متى تتيممون بالتراب والماء فائض ، يا كسلان في الطاعة وهو في المعصية ناهض ، تالله من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ :

لا ينفع الوعظ قلباً قاسياً أبداً ولا يلين لوعظ الواعظ الحجر
ولا أرى أثراً للذكر في جسدي والحبل في الحجر القاسي له أثر

[روى أبو سفيان الثوري رحمه الله] كان يعظ الناس يشوّقهم إلى الله تعالى ويرغبهم في أثوابه ويحذرهم من عقابه ، وكان الناس يختلفون إليه فصعد يوماً منبره على عادته ، فلما استقرّ به الجلوس وأراد أن يتكلم رفعت إليه امرأة رقعة ، فلما قرأها تغير لونه وبكى بكاءً شديداً ثم نزل ولم يتكلم . فسأله أصحابه ومن يعزّ عليه أن يخبرهم بما في الرقعة فقرأها عليهم فإذا فيها مكتوب :

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى كيما تصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا أبداً وأنت من الرشاد عديم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدي بالوعظ منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

فلما قرأ ذلك بكى بكاءً شديداً حتى أغمي عليه ، فلما أفاق قالوا له : يا سيدي أنت كلامك موزون وعرضك مصون ، تشفي القلوب بوعظك وتسلي المحزون ، فكيف يؤثر في قلبك هذا الكلام وأنت إمام وأيّ إمام ؟ فبكى وقال : أنا ما أصلح أن أتكلم على رؤوس الناس فأنا أعرف بنفسي من غيري ثم فاضت عيناه ، واشتغل بوجده وجواه ، وما عاد أحد بعد ذلك اليوم يسمع كلامه ولا يراه ، حتى مات رحمه الله . إخواني أفلا تنظرون إلى قلوب هؤلاء الأقوام ؟ كانت قلوبهم كالزجاجة رقيقة يؤثر فيها الكلام ، ويقدح زناد الموعظة في إحراق قلوبهم نار الوجد والغرام ، وأنتم تسمعون المواعظ فلا تؤثر في قلوبكم ولا تغسلون بماء الدمع درن ذنوبكم بل تتركون ما ينفعكم وراء ظهوركم وتقبلون على اللهو والأباطيل كما قيل :

قلوب بذكر الوعظ تزداد قسوة فلا الوعظ يجدي لا ولا العتب ينفع
ألين مقالاً في الكلام لعلها تلين فلا تصغي ولا تتخشع
إذا قلت هذا مدرج القوم فادرجي يقول الهوى حدثت من ليس يسمع

وإن عرضت يوماً إلى الناس شهوة تراها إلى ما يغضب الربّ تسرع
وأن ليس للإنسان إلا الذي سعى وكل مجازى بالذي كان يصنع

[**إخواني**] استحوذت عليكم الغفلة وغرتكم أيام المهلة ، فيا مغتراً في ظلمه بإمهاله ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ : [إبراهيم : ٤٢] ليست المهلة على الإطلاق ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ : [إبراهيم : ٤٢] إذا انتهى أمدها طلبوا زيادة ﴿ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ : [إبراهيم : ٤٤] فيقابلون بتوبيخ ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ﴾ : [فاطر : ٣٧] فلو رأيتهم يوم العرض ، وقد خرجوا من قبورهم حيارى وبرزوا لله الواحد القهار ترجف بوادرهم يوم ترجف الراجفة ، عليه أمارات الشقاء ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ : [الرحمن : ٤١] إذا اشتد جوعهم ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ : [الغاشية : ٦] إذا قوي عطشهم ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ : [محمد : ١٥] العرى خير من كسوتهم سرابيلهم من قطران إذا استغاثوا ﴿ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ : [الكهف : ٢٩] أتراهم لم يسمعوا ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ : [الدخان : ٤٠] إذا شاهدت النار من اشترى لذة ساعة بعذاب سنين ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ : [الملك : ٨] من أراد النجاة فليتب ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ : [المجادلة : ٤] .

ما حال من غلقت أبواب رحمته وخلدت نفسه في سجن غفلته
أعمته شهوته عن كل صالحة كأنما ختمت أجفان مقلته
فدعه إن لم يفق من قبل صرعته فسوف يعثر في أذيال جفوته
يا من ينادي ولا يصغي لصالحة كأنما قلبه في غير جثته
إن كان جسمك لا يقوى على ألم فالنار أعظم من آلام علته

[**إخواني**] إذا كان صفاء المواعظ لا تؤثر في قلوبكم الكدرة ، ومعاول التخويف لا تقطع في نفسكم المتحيرة ، فهذا كلام ربكم يتلى عليكم في آياته المطهرة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ : [الزلزلة : ٧ـ٨] يا غافلاً عما نهاه وأمره ، يا مضيعاً في البطالة عمره ، إلى متى تلهو وذنوبك مكتوبة مسطرة ، كيف حالك في سفرك وطريقك خطرة ، وشاهدت ميزانك الذي يرجع بالذرة الحقرة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ يا غافلاً والموت يقفو أثره ، كيف بك إذا شاهدت السماء منفطرة ، وحافظك قد أحصى ما عملت من خير وشر وحصره ، وقد تركبت عليك الحجة وتعذرت المعذرة ، فهناك يجد الإنسان من الإحسان أو العصيان ما أحضره

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ :

يا نفس توبي عن فعال منكره ... واسعي إلى دار البقا مستبصره
يا نفس فاز القوم من رب العلا ... بالعفو عن زلاتهم والمغفره
يا نفس قد قطعوا النهار لربهم ... صوماً وفازوا بالعلا في الآخره
يا نفس ويحك للمتاب فبادري ... من قبل أن تأتي الذنوب مسطره
يا نفس إن القوم زادوا خيفة ... من مكره وقلوبهم متنكره
يا نفس جدّي في التقى وتزوّدي ... عملاً وكوني للقا مستشعره
يا نفس كم قوم على الدنيا احتووا ... ظلماً وما لهمو إذا من آخره
يا نفس كم أمم تفانوا في البلا ... وعظامهم أضحت عظاماً ناخره
يا نفس توبي اليوم من قبل الردى ... فعسى تكوني من غد مستبشره
يا نفس آه من الذنوب وكلها ... يوم القيامة في الكتاب محرره
يا نفس ما ينجيك في اليوم اللقا ... من عظم أهوال الحساب المنكره
إلا شفاعة أحمد الهادي الذي ... يرجى لديه الفعو عند المقدره
فهو النبيّ الهاشمي المصطفى ... والمجتبى من خلقه إذ طهره
يا نفس جدّي في المسير لقبره ... واسعي إلى أبوابه مستصغره
وتمتعي بجماله ووصاله ... كي لا تكوني في الورى متحسره
وإذا وصلت إلى رباه فعظمي ... تلك المواقف وادخلي متوقره
فعسى تنالي الفوز من رب العلا ... وتعود زلات الذنوب مكفره
وتشاهدي ذاك الضريح وقد بدت ... أنواره للكائنات منوره
هو صفوة الرحمن من كل الورى ... وبأحسن التكوين حقاً صوره
أسرى به الباري إليه جهرة ... في جنح ليل صبحه ما أسفره
ورقى على ظهر البراق معظماً ... والكون من أنواره قد نوره
فاستبشرت بقدومه أهل السما ... فلذاك أضحت من شذاه معطره
وهو الذي جليت عروس جماله ... في ليلة المعراج لما أظهره
وهو الذي بالحق جاء وبالهدى ... وأباحنا الدين القويم ويسره
صلى عليه الله ما سرت الصبا ... وأتت بطيب ثنائه متعطره

الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس الثاني والأربعون

في فضائل يوم عاشوراء

الحمد لله الذي عزت عزته أوّلاً وآخراً ، وكفلت نعمته مؤمناً وكفوراً ، وأظهرت قدرته ضياء وديجوراً ، ووسعت رحمته من ضيع زمانه تقصيراً . كم أفقر غنياً وأغنى فقيراً ، ورحم مسكيناً وجبر كسيراً ، وغفر ذنوباً وعمر قلوباً وشرح صدوراً ، وأباح جنابه وفتح بابه لمن كان مهجوراً ، يخافه الملك فيكثر تهليلاً وتكبيراً ، ويجري بأمره الفلك فيسيره تسييراً ، كتب كتاب رحمته وسطره تسطيراً ، وأشهد على نفسه ملائكته أنه لم يزل غفوراً ، معظماً مقدساً مذكوراً معبوداً محموداً مشكوراً ، يبصر ما تحت التحت ، وكان الله سميعاً بصيراً ، ويعلم ما يختلج في الفكر وكان الله عليماً خبيراً ، ويفنى الكل ويبقى ؛ وكان الله على ذلك قديراً يخرج الحيّ من الميت وخلق كل شيء فقدره تقديراً ، أعطاك مع علمه بذنبك ﴿ وَمَاكَانَعَطَآءُرَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ : [الإسراء : ٢٠] ليس عليه حجاب فيكون مستوراً ، ولا هو جسم فيكون محصوراً . اختار قوماً قوّاماً فكسا وجوههم نوراً ، وملأ قلوبهم بمحبته وسروراً ، شرفهم إذ عرفهم طريق معرفته وجعل حظهم حظاً موفوراً ، رفعوا إليه قصة الشكوى من الهجران فكتب لهم بالأمان منشوراً ، أيقظهم من بين النائمين وجعل بينهم وبين الغافلين حجاباً مستوراً ، نصبوا في خدمته الأقدام وستروا وجوههم بأستار الظلام فجعلها بين الأنام شموساً وبدوراً ، فقههم لخطابه ولذذهم بعتابه وسقاهم بكأس اقترابه شراباً طهوراً ، وأدناهم من الجناب وفتح لهم الباب ورفع لهم حجاباً مستوراً ، فسبحانه من إلّه صرف أعواماً ودهوراً ، وشرف أياماً وشهوراً ، وفضل مواسم الطاعات على جميع الأوقات ، وخصّ بالفضل والبركات يوم عاشوراء ، وخاطب فيه نبيه موسى وسقاه من شرابه كؤوساً ، وجعل له عند سماع مناجاته طوراً ، وقربه واجتباه وخاطبه فيه وناجاه ، وأعطاه فضلاً غزيراً ، وافترض صيامه على بني إسرائيل وأعدّ لمن صامه من الفضل الجزيل أجوراً ، وفيه تاب الله على آدم ولقاه نضرة وسروراً ، وأخرج نوحاً من السفينة ، وجعل له من السكينة حظاً موفوراً ، وقد نجى الخليل من نار النمروذ ووقاه لهيباً وسعيراً ، وفيه أخرج يوسف من السجن إذ كان صبوراً ، وفيه ردّ بصر يعقوب وكشف ضرّ أيوب وغفر لداود فأصبح ذنب مغفوراً ، ولسان الإحسان يبشرهم في القرآن بقول الملك الديان : ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ : [الإنسان : ٢٢] .

لا نلت مما أرتجيته سرورا ... إن كان قلبي عن هواك نفورا
والمرء ليس بصادق في حبه ... إن لم يكن في النائبات صبورا
أشغلتني بهواك عن كل الورى ... فلذاك راح القلب فيك أسيرا
لله قوم أخلصوا في حبه ... فكسا وجوههم الوسيمة نورا
تركوا النعيم وطلقوا دنياهمو ... زهداً فعوّضهم بذاك أجورا
قاموا يناجون الحبيب بأدمع ... تجري فتحكي لؤلؤاً منثورا
ستروا وجوههم بأستار الدجى ... ليلاً فأضحت في النهار بدورا
عملوا بما علموا وجادوا بالذي ... وجدوا فأصبح حظهم موفورا
وإذ بدا ليلٍ سمعت حنينهم ... وشهدت وجداً منهمو وزفيرا
تعبوا قليلاً في رضا محبوبهم ... فأراحهم يوم اللقاء كثيرا
صبروا على بلواهمو فجزاهمو ... يوم القيامة جنة وحريرا
يا أيها الصبّ الكئيب إلى متى ... تفني زمانك باطلاً وغرورا
بادر فهذا يوم عاشروا الذي ... من صامه لله نال أجورا
فاضرع إلى مولاك فيه وناده ... يا واحداً في ملكه وقديرا
إن لم أكن أهلاً لعفوك سيدي ... كن أنت أهلاً ساتراً وغفورا
ما لي سواك وأنت غاية مقصدي ... وإذا رضيت فنعمته وسرورا

[وروي أبو قتادة الأنصاري ﷺ] : أن رسول الله ﷺ قال : « صوم يوم عاشوراء يكفر العام الذي قبله » ، وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عزّ وجل افترض على بني إسرائيل صوم يوم في السنة وهو يوم عاشوراء وهو اليوم العاشر من المحرم فصوموه ووسعوا على عيالكم فيه فإنه من وسع فيه على عياله وأهله من ماله وسع الله عليه سائر سنته » فصوموه فإنه اليوم الذي تاب الله فيه على آدم فأصبح صفياً ، ورفع فيه إدريس مكاناً علياً ، وأخرج نوح من السفينة ، ونجى إبراهيم من النار ، وأنزل الله فيه التوراة على موسى ، وأخرج فيه يوسف من السجن ، وردّ على يعقوب بصره ، وفيه كشف الضرّ عن أيوب وفيه أخرج يونس من بطن الحوت ، وفيه فلق البحر لبني إسرائيل وفيه غفر لداود ذنبه وفيه أعطى الله الملك لسليمان ، وفي هذا اليوم غفر لمحمد ﷺ ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، وهو أول يوم خلق الله فيه الدنيا وأوّل يوم ينزل فيه المطر من السماء يوم عاشوراء وأول رحمة أنزلت إلى الأرض يوم عاشوراء فمن صام يوم عاشوراء فكأنما صام الدهر كله وهو صوم الأنبياء ومن أحيا ليلة عاشوراء بالعبادة فكأنما عبد الله تعالى مثل عبادة أهل السموات السبع ومن صلّى فيه

أربع ركعات يقرأ في كل ركعة الحمد لله مرة وقل هو الله أحد إحدى وخمسين مرة غفر الله له ذنوب خمسين عاماً ، ومن سقى يوم عاشوراء شربة ماء سقاه الله يوم العطش الأكبر كأساً لم يظمأ بعدها أبداً وكأنما لم يعص الله طرفة عين ومن تصدق فيه بصدقة فكأنما لم يردّ سائلاً قط ومن اغتسل وتطهّر يوم عاشوراء لم يمرض في سنته إلا مرض الموت ومن مسح فيه على رأس يتيم أو أحسن إليه فكأنما أحسن إلى أيتام ولد آدم كلهم ، ومن عاد مريضاً في يوم عاشوراء فكأنما عاد مرضى أولاد آدم كلهم وهو اليوم الذي خلق فيه العرش واللوح والقلم ، وهو اليوم الذي خلق الله فيه جبريل ورفع فيه عيسى وهو اليوم الذي تقوم فيه الساعة . وعن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله عز وجل : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ : [طه : ٥٩] قال : يوم عاشوراء فطوبى لمن قدم في هذا اليوم الشريف عملاً صالحاً ، وأتجر فيه بالخيرات للآخرة متجراً رابحاً ، وتاب من ذنوبه وخطاياه وأقبل إلى مولاه صالحاً واتعظ بغيره وقبل ممن أصبح له ناصحاً ، وترك الكبر والدعوى ، وسلك إلى التقوى طريقاً واضحاً :

يا غادياً في غفلة ورائحاً ... إلى متى تستحسن القبائحا ... وكم أخي كم لا تخاف موقفا
يستنطق الله به الجوارحا ... واعجباً منك وأنت مبصر ... كيف تجنبت الطريق الواضحا
كيف تكون حين تقرا في غد ... صحيفة قد حوت الفضائحا ... وكيف ترضى أن تكون خاسرا
يوم يفوز من يكون رابحا ... فاعمل لميزانك خيراً فعسى ... يكون في يوم الحساب راجحا

وصم فهذا يوم عاشروا الذي ... ما زال بالتقوى شذاه فائحا
يوم شريف خصنا الله به ... يا فوز من قدّم فيه صالحا

[وروى أبو هريرة ﷺ قال] : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم » انفرد به مسلم . وسئل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن صيام يوم عاشوراء ؟ فقال : ما علمت أن لرسول الله ﷺ يوماً يطلب فضله في الأيام إلا هذا اليوم يعني يوم عاشوراء ، ولا شهراً إلا هذا الشهر ، يعني رمضان متفق عليه . وروى بن أنس ﷺ عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية بن أبي سفيان عام حج وهو على المنبر يقول : يا أهل المدينة أين علماؤكم ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن هذا يوم عاشوراء لم يكتب الله عليكم صيامه وأنا صائم فمن شاء فليصم ومن شاء فليفطر » متفق عليه . وروى ابن عباس وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : « لئن عشت إلى قابل لأصومنّ التاسع والعاشر » فتوفي رسول الله ﷺ قبل ذلك فيحتمل أن يكون أراد نقل الصيام إليه ويحتمل أن يكون أراد أن يصومه مع العاشر ، ولهذا استحب الإمام الشافعي وغيره صيام اليومين احتياطاً وهو مرويّ عن ابن عباس أنه قال : « صوموا التاسع والعاشر ولا تشبهوا باليهود » وروت عائشة رضي الله عنها عن النبيّ ﷺ أنه قال :

« من صام أيام العشر إلى يوم عاشوراء ورث الفردوس الأعلى » وإلى هذا العشر أشار الله تعالى بقوله : ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾ : [الأعراف : ١٤٢] . ولعشر المحرم فضائل كثيرة ، وآثار غزيرة . فمن ذلك ما روى معاوية بن قرة أن نوحاً عليه السلام صام ومن معه في السفينة يوم عاشوراء شكراً لله تعالى إذ نجاهم يوم استوت على الجودي وكان يوم عاشوراء . وعن طاوس في قوله تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام في قوله : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾ : [يوسف : ٩٨] قال أخرهم إلى ليلة الجمعة فوافقت ليلة عاشوراء . قال ابن شهاب : ومما بلغنا عن الصحابة والتابعين أنه كان يصوم يوم عاشوراء عليّ بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري وعلي بن الحسين وسعيد بن جبير رضي الله عنهم أجمعين ، وقد ذكرنا مما يستحب من الأعمال في يوم عاشوراء ما ذكرناه فيما تقدّم ، ومنها ما لم نذكره فمنه أنه يستحب أن يستعمل فيه الاغتسال ، وقد ذكر أن الله تعالى يخرق في تلك الليلة زمزم إلى سائر المياه فمن اغتسل يومئذ أمن من المرض في جميع السنة ومن ذلك الصدقة ، ومن ذلك مسح رأس اليتيم ، ومن ذلك تفطير الصائم ، ومن ذلك إسقاء الماء ومن ذلك زيارة أخ في الله ، ومن ذلك عيادة المرضى ، ومن ذلك الصوم ، ومن ذلك التوسعة على العيال ، ومن ذلك إكرام الوالدين والبرّ بهما ، ومن ذلك تشييع الجنائز ، ومن ذلك إماطة الأذى عن الطريق ، ومن ذلك كظم الغيظ ، ومن ذلك العفو عمن ظلم ، ومن ذلك التنفل وكثرة الذكر ومن ذلك ما روي عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه . قال : « من قرأ في يوم عاشوراء ألف مرة قل هو الله أحد نظر الرحمن إليه ، ومن نظر الرحمن إليه لا يعذبه أبداً » .

[وعن ابن مسعود رضي الله عنه] أن رسول الله ﷺ قال : « أنزل الله تعالى على موسى بن عمران في التوراة : من صام يوم عاشوراء فكأنما صام الدهر كله » وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : « أمر رسول الله ﷺ رجلاً أن ينادي في الناس ألا من كان أكل فليصم بقية يومه ومن لم يأكل فليصم فإن اليوم يوم عاشوراء » . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : « أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء قال لهم : ما هذا ؟ فقالوا : هذا يوم صالح نجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدوّهم فصامه موسى شكراً لله ، فنحن نصومه لأجله فقال رسول الله ﷺ : أنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه » . وأما الصدقة به فإنها مضاعفة والبر والإيثار والإحسان إلى ذوي القربى وصلة الرحم والرحمة والرأفة للفقراء والمساكين . كما روي أن فقيراً كان له عيال في يوم عاشوراء فأصبح هو وعياله صياماً ولم يكن عنده شيء فخرج يطوف على شيء يفطرون عليه فلم يجد شيئاً فدخل السوق الصرف فرأى رجلاً قد فرش في

دكانه النطوع المثمنة وسكب عليها أكوام الذهب والفضة فتقدم إليه وسلم عليه ، وقال له : يا سيدي أنا فقير لعل أن تقرضني درهماً واحداً أشتري به فطوراً لعيالي وأدعو لك في هذا اليوم فولى بوجهه عنه ولم يعطه شيئاً فرجع الفقير وهو مكسور القلب وولى ودمعه يجري على خده فرآه جار له صيرفي وكان يهودياً فنزل خلف الفقير وقال له : أراك تكلمت مع جاري فلان ؟ فقال : قصدته في درهم واحد لأفطر به عيالي فردني خائباً وقلت له : أدعو لك في هذا اليوم ، فقال اليهودي : وما هذا اليوم ؟ فقال له الفقير : هذا يوم عاشوراء وذكر له بعض فضائله فناوله اليهودي عشرة دراهم وقال له : خذ هذه وأنفقها على عيالك إكراماً لهذا اليوم فمضى الفقير وقد انشرح لذلك ووسع على أهله النفقة ، فلما كان الليل رأى الصيرفي في المنام كأن القيامة قد قامت وقد اشتد العطش والكرب فنظر فإذا قصر من لؤلؤة بيضاء أبوابه من الياقوت الأحمر فرفع رأسه ، وقال : يا أهل هذا القصر اسقوني شربة ماء فنودي هذا القصر كان قصرك بالأمس ، فلما رددت ذلك الفقير مكسور القلب محي اسمك من عليه وكتب باسم جارك اليهودي الذي جبره وأعطاه عشرة دراهم فأصبح الصيرفي مذعوراً ينادي على نفسه بالويل والثبور فجاء إلى جاره اليهودي وقال : أنت جاري ولي عليك حق ولي إليك حاجة ، قال : وما هي ؟ قال : تبيعني ثواب العشرة دراهم التي دفعتها بالأمس للفقير بمائة درهم . فقال : والله ولا بمائة ألف دينار ولو طلبت أن تدخل من باب القصر الذي رأيته البارحة لما مكنك من الدخول فيه . فقال : ومن كشف لك عن هذا السر المصون . قال : الذي يقول للشيء كن فيكون ، وأنا أشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

[**إخواني**] كان هذت يهودياً فأحسن الظن بيوم عاشوراء وما كان يعرف فضله فأعطاه الله ما أعطاه ومنّ عليه بالسلام فكيف بمن يعرف فضله وثوابه ويهمل العمل فيه :

ما حال من ظل على باب الرضا مطرود ... وعن موارد ساعات اللقا مردود

وقد حكم في القدم أن ينجز الموعود ... هذا بحكم القضا يشقى وذا مسعود

فيا من ضيع أوقات المكنة والاقتدار ، ونسي الآخرة وأنس بهذه الدار ، وجانب الصالحين وصاحب الفجار ؛ وآثر على صفا الإخلاص كدر الأسرار ، وصار عبداً للهوى وقد كان من الأحرار ، ولم يذكر في حلاوة الشهوات مرارة الأوزار :

يا غافلاً في نومه وسناته ... متشاغلاً باللهو في غفلاته ... لا يستفيق من الذنوب وكلما

وعظوه جاز الحدّ في زلاته ... قد ضل عن طريق الهدايه والتقى ... والشيب وافى منذراً بوفاته

فلو استقال إلى الكريم فربما ... يعفو بفضل منه عن هفواته

[وقيل] : كان بالبصرة رجل له مال وثروة وكان في سنة يجمع الناس في بيته ليلة عاشوراء

يقرؤوا القرآن ويذكرون ويهللون ويسبحون ويحيون تلك الليلة بالقراءة والذكر ويمدّ لهم الطعام ويفتقد المساكين ويحسن إلى الأرامل والأيتام . وكان له جار وله بنت مقعدة ، فقالت لأبيها : يا أبت ما بال جارنا يجمع الناس في كل سنة في هذه الليلة ويحيونها بالقراءة والذكر ؟ فقال لها : هذه ليلة عاشوراء ولها حرمة عند الله وفضائل كثيرة ، ثم ناموا وسهرت الصبية تسمع القرآن والذكر إلى وقت السحر ، فلما ختموا القرآن دعوا رفعت رأسها إلى السماء وقالت : سيدي ومولاي بحرمة هذه الليلة عندك وبهؤلاء الأقوام الذين باتوا يتلون ذكرك ساهرين في طاعتك إلا ما عافيتني ومسحت ضري وجبرت قلبي بعد كسري فما استتمت الكلام إلا وقد زالت عنها الأوجاع والأسقام ونهضت قائمة على الأقدام . فلما نظر أبوها إلى قيامها بعد ضرها وسقامها . قال : يا بنية من كشف عنك هذه الغمة والبلية ؟ قالت : الذي جاد لي بالرحمة ولا يبخل بالنعمة ، يا أبت إني توسلت بهذه الليلة إلى سيدي فأزال ضرري وعافى جسدي :

فلا تجزع لريب الدهر واصبر ... فإن الصبر في العقبى سليم ... فما جزع بمغن عنك شيئاً
ولا ما فات ترجعه الهموم ... إذا ضاق الخناق فكن صبوراً ... كريماً فالشدائد لا تدوم
فبالصبر الجميل تنال أجراً ... وتعطى بعد ذلك ما تروم ... فكم من محنة عظمت ودامت
وخان مواصل وجفا حميم ... أتى فرج الإله لها صباحا ... فما أمست وأقلعت الهموم

فسلم الذي أبلى يعافي ... وثق بالله فهو بنا عظيم

[**إخواني**] اغتنموا زمان الأرباح فأيام المواسم معدودة ، وانتهزوا الفرص فأوقات السلامة مشهودة ، وبادروا للعمل مبادرة مجتهد محق وارفضوا فضول الدنيا وتخلصوا من الرق قبل أن تلقوا ساعة حسرة تلقوا بعدها ظلمات حفرة كم من صحيح قبل هذا اليوم فسقم وكم مطمئن أزعجته حداة المنون فرحل ولم يقم ، وكم ركن شيد بالشهوات واللذات فهدم ، وكم موجود لم يأت عليه هذا اليوم حتى عدم ، وهذا حالك عن قريب لكن الغرور يخفيه وهذا مآلك فتدبر ما أنت فيه فكأني بك وقد تبدّلت الصحة بالسقم وعدمت العافية وجرى بالبلاء القلم وانقضى العمر كما قضى الله وحكم ، وأقبل الموت الذي قدره الله وحتم وبلغت الروح التراقي فنسيت لذة النعم وتحسر القلب لفراق الأحباب وأظهر الدمع ما كتم وما كانت إلا ساعة حتى ذهبت الروح وسكن الألم ثم تنقل إلى منزل وعر شديد الظلم فيا أسفاً إن جازاك مولاك بالمعاصي وانتقم ويا تعساً لك إن زلت عن الصراط منك القدم ، فيا من حالته هذه إلى كم هذه الغفلة في الهوى وكم :

تفنى اللذاذة ممن نال شهوته ... من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء في مغبتها ... لا خير في لذة من بعدها النار

[**قيل**] : إنه كان بمصر رجل تاجر في التمر يقال له عطيه بن خلف ، وكان من أهل الثروة ثم افتقر ولم يبق له سوى ثوب يستر عورته . فلما كان يوم عاشوراء صلى الصبح في جامع عمرو بن العاص ومن عادة هذا الجامع ألا تدخله النساء إلا في يوم عاشوراء لأجل الدعاء فوقف يدعو مع جملة الناس وهو بمعزل عن النساء فجاءته امرأة ومعها أطفال أيتام ، فقالت : يا سيدي سألتك بالله إلا ما فرجت عني وآثرتني بشيء أستعين به على قوت هذه الأطفال فقد مات أبوهم وما ترك لهم شيئاً وأنا شريفة ولا أعرف أحداً أقصده وما خرجت في هذا اليوم إلا عن ضرورة أحوجتني إلى بذل وجهي ، وليس لي عادة بذلك . فقال الرجل في نفسه : أنا ما أملك شيئاً وليس عندي غير هذا الثوب وإن خلعته انكشفت عورتي وإن رددتها فأيّ عذر لي عند رسول الله ﷺ فقال لها : اذهبي عندي حتى أعطيك شيئاً فذهبت معه إلى منزله فأوقفها على الباب ودخل وخلع ثوبه واتزر بخلق كان ثم ناولها الثوب من شق الباب ، فقالت : ألبسك الله من حلل الجنة ولا أحوجك باقي عمرك ففرح بدعائها ، وأغلق الباب ودخل بيته يذكر الله تعالى إلى الليل ثم نام فرأى في المنام حوراء لم يرى الراؤون أحسن منها وبيدها تفاحة قد عطرت ما بين السماء والأرض فناولته التفاحة فكسرها فخرج منها حلة من حلل الجنة لا تقوّم بها الدنيا بما فيها فألبسته الحلة وجلست في حجره ، فقال لها : من أنت ؟ فقال : أنا عاشوراء زوجتك في الجنة ، قال : بم نلت ذلك ؟ قالت : بدعوة تلك المسكينة الأرملة والأيتام الذين أحسنت إليهم بالأمس فانتبه وعنده من السرور ما لا يعلمه إلا الله عزّ وجل ، وقد عبق من طيبه المكان فتوضأ وصلى ركعتين شكراً لله عزّ وجل ثم رفع طرفه إلى السماء ، وقال : إلـهي إن كان منامي حقاً وهذه زوجتي في الجنة فاقبضني إليك فما استتمّ الكلام حتى عجل الله تعالى بروحه إلى دار السلام :

من عامل الله لم تخسر تجارته ... وكل ما كان منها كاسداً نفقا ... والله حقاً يجازي المحسنين وقد

جاء الكتاب بذا المعنى وقد نطقا ... فاطلب رضا الله فيما ترتجيه وثق ... به تنال المنى والفوز والسبقا

وقف على الباب وأطرق بالمتاب تنل ... أما ترى الباب مفتوحاً لمن طرقا

[**إخواني**] هذه بعض بشارات المؤمن عند الموت فأين الاستعداد ، أين من يزرع الخير في دنياه ويحمد في عقباه الحصاد ، ما ينقص مال من صدقة بل يزداد ، أين الذين كنزوا الكنوز وعمروا البلاد ، أين الذين قادوا الجيوش واستعبدوا العباد ، أين من بنى وشاد ؟ أين الآباء والأجداد ؟ :

غداً توفى النفوس ما كسبت ... ويحصد الزارعون ما زرعوا

إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ... وإن أساؤوا فبئس ما صنعوا

فلله درّ من عمل وبادر شهوره وسنينه ، وتدرّع بالحياء والوقار والسكينة وعمل ليوم فيه ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ : [المدّثر : ٣٨] وعرف قدر هذا اليوم الشريف الذي نجلى الله تعالى فيه نوحاً وأخرجه من السفينة ، وذلك أن نوحاً عليه السلام لما نزل من السفينة هو ومن معه شكوا الجوع وقد فرغت أزوادهم فأمرهم أن يأتوا بفضل أزوادهم فجاء هذا بكف حنطة ، وهذا بكف عدس وهذا بكف فول ، وهذا بكف حمص إلى أن بلغت سبع حبوب ، وكان يوم عاشوراء فسمى نوح عليها وطبخها لهم فأكلوا جميعاً وشبعوا ببركات نوح عليه السلام فذلك قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ : [هود : ٤٨] وكان ذلك أوّل طعام طبخ على وجه الأرض بعد الطوفان فاتخذه الناس سنة يوم عاشوراء وفيه أجر عظيم لمن يفعل ذلك ويطعم الفقراء والمساكين .

[وقيل : إن موسى عليه السلام] لما وعده الله سبحانه وتعالى أن يخاطبه ويكلمه ويلقي إليه التوراة في الألواح أمره بصيام ثلاثين يوماً فصامها وهي شهر ذي الحجة ، فلما أنكر خلوف رائحة فمه استاك بعود خروب ، وقيل : زيتون ، وقيل غير ذلك فقيل له : أيها الصائم عن أمرنا كيف أفطرت برأيك ؟ أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك فأمر بصيام عشرة أيام أخر كفارة لما فعل ، قال الله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ : [الأعراف : ١٤٢] وهي عشر المحرم ، وقيل : عشر ذي الحجة وعلى الوجه الأول يكون آخرها يوم عاشوراء ، وهو اليوم الذي كلم الله فيه نبيه موسى وأنزل عليه التوراة ، وهو يوم عظيم فضيل فيه تضاعف الحسنات ويعفى عن كل ذنب ثقيل ، فيه تاب الله على آدم وأخرج نوحاً من السفينة وحمله ومن معه بالزاد القليل ، وفيه نجى من النار إبراهيم الخليل ، وشفى من البلاء أيوب ، وردّ يوسف على يعقوب بعد حزنه الطويل ، وفيه أخرج يونس من بطن الحوت وفلق البحر لبني إسرائيل وغفر لداود ذنبه ، وفيه ردّ لسليمان ملكه الردّ الجميل ، وفيه خاطب الله تعالى موسى ورفع فيه عيسى ، وفيه ينزل بالرحمة جبريل ، وفيه غفر لمحمد ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وناهيك به من يوم شريف فضيل من صامه فكأنه صام الدهر ومن قام ليله فاز بالأجر الوافر والعطاء الجزيل ، ومن كسا فيه عارياً أو أجرى فيه من المعروف جارياً أجاره الله من العذاب الوبيل ، ومن جبر فيه يتيماً أو أطعم جائعاً عديماً أو سقا فيه شربة ماء أطعمه الله من موائد الجنة وسقاه من الرحيق المختوم والسلسبيل ومن تصدق فيه بصدقة كان يوم القيامة تحت ظلها الظليل ، ومن وسع فيه على عياله وسع عليه رزقه وحسن خلقه وخلقه الجميل ، فأكثروا فيه التسبيح والتهليل وبادروا فيه بالتوبة إلى الملك الجليل وتزوّدوا فيه

من الأعمال الصالحة للسفر الطويل فقد ورد في فضله من الإنعام والإحسان ما يقصر عن وصفه كل لسان ويقصر عن حصره كل فضيل .

[كان وكان]

يا من يروم الفضائل في يوم عاشوراء استمع فإنه في الحقيقة يوم شريف فضيل
فتب إلى الله واغنم صيامه تلقى المنى وإن نويت الإنابة بادر إلى التعجيل
وحصل الزاد واغنم هذي الليالي بالتقى وابكي بدمع هامي على الخدود يسيل
طوبى لعبد تيقظ وقام في وقت السحر وقال يا رب إني مذنب عليل ذليل
فامنن عليّ بتوبة فأكثر العمر انقضى ولا تخيب رجائي فالظنّ فيك جميل
وليس لي من وسيلة إلا النبيّ المصطفى الهاشمي المفضل بالوحي والتنزيل
رسول ربّ البرايا ماحي الخطايا والزلل هو النبيّ المخصص بالقرب والتبجيل
صلى عليه وسلم ربّ السماوات العلى ما دامت الورق تبدي على الغصون هديل

اللهم اجعلنا من المقبولين في هذا الشهر الفضيل ، وخصنا بالأجر الوافر والعطاء الجزيل واغفر لنا فيه كل ذنب عظيم ، وخفف ظهورنا من كل وزر ثقيل ، وتقبل فيه يسير أعمالنا فإنك تقبل العمل القليل ، وأجرنا فيه من عاداتك على كل حسن جميل ، واحشرنا تحت لواء من أنزلت عليه في محكم التنزيل : ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ : [آل عمران : ١٧٣] ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس الثالث والأربعون

في مولد رسول الله ﷺ

الحمد لله الواحد فلا يجحد . الأحد الذي في سرمديته توحد . الفرد الذي في ربوبيته تفرّد الشكور الذي لا يشكر غيره ولا يحمد ، الغفور الذي يغفر الذنوب لمن يتوب ولا يتردد ، الملك الذي أفنى الممالك والملوك وملكه سرمد ، العلي الذي إليه الكلم الطيب يصعد ، الحاكم الذي حكم بالموت على أهل الدنيا فليس فيها أحد يخلد ، أرسل الرسل ليرشدوا الناس إلى الطريق الأحمد . وجعلهم حجاباً بين يدي من لهم الشفاعة ولواء الحمد في القيامة يعقد ، وجعله آخر الأنبياء ليبين لهم الطريق الأرشد ، فلذلك قال تعالى في كتابا الممجد : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا ﴾ : [الصف : ٦] فنوّه بذكره تشريفاً بقدره وتوقيراً ،

وأطفأ به للمشركين نارهم وأظهر به للمؤمنين نوراً . وأكمل به لأمته فرحةً وسروراً . وأرسله إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً ، وجعله داعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً . وبعثه رحمة لكل موجود ونوراً به الوجود تنويراً ، فقال في حقه الملك العلي : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ : [الأحزاب : ٤٥ـ٤٦] فهو سيد المرسلين وإمام المتقين ، ومن شرفه الله على جميع المخلوقين ، ونبأه وآدم بين الماء والطين ، وأرسله إلى كافة الخلق . فقال تعالى في كتابه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ : [الأنبياء : ١٠٧] وجعل مقامه رفيعاً وحسنه بديعاً مولده للمؤمنين ربيعاً ، فما برح دين الإسلام به مرفوعاً ، ودين الشرك به موضوعاً . نقله من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية فطاب أصولاً وزكا فروعاً ، ارتجّ لميلاده إيوان كسرى فانهار بنيانه وتداعى وقوعاً ، شفعه الله تعالى في العصاة من أمته تعظيماً لقدره ، وجعل كلاً منه لقوله سامعاً ولأمره مطيعاً ، واختاره لهم في الدنيا رسولاً وفي الآخرة شفيعاً ، وأمره بإظهار شرفه عليهم ، فقال له : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ : [الأعراف : ١٥٨] توّجه الله بتاج الوقار ونوّر به جميع الأقطار ، وشرف فيه البادين والحضار ، وصفاه من جميع الأكدار ، وأخمد لنوره نار فارس وأضاء بمولده غياهب الحنادس وخلع عليه خلع الهيبة والوقار ، وختم به النبيين وتمم به المرسلين ، وأنزل عليه في كتابه المبين ، تشريفاً له ولأصحابه الأخيار ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ : [الفتح : ٢٩] نبي بوّأه مقاماً جليلاً وأعطاه عطاءً جزيلاً ، بشرت بنبوته الأحبار والرهبان ، وأخبرت بظهوره الكهان ، وأظهرت له في الأكوان وصفاً حسناً وثناءً جميلاً ، وأوجده الله في مثل هذا الشهر الشريف ، وفضله على سائر الخلق تفضيلاً ، وكساه من حلل الوقار ثوباً جليلاً ، وأنذر الناس برسالته فقال في محكم آياته : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ : [المزمل : ١٥]

ربيع السرور أنار السبيلا ... وأهدى لنا كأسه السلسبيل ... بمولد خير الأنام الذي
له الله كان ولياً كفيلا ... ترى قبل موتي أزور الحمى ... وأبرىء منها الفؤاد العليل
وأنظر وادي قبا قد بدا ... لعيني وأشهد ذاك النخيلا ... ويدنو البقيع وقبر الشفيع
بمن طاب فرعاً وأصلاً أصيلاً ... وألثم ذاك الضريح الذي ... تضمن خير الأنام الرسولا

نبي الهدى ما حيا للردى ... ويجلو الصدا وهو يهدي السبيلا
عليه من الله طول المدى ... سلام إذا رام حاد رحيلا

فيا ذوي العقل الراجح والذهن السليم ، أنظروا ما أعدّ الله تعالى لهذا النبيّ الكريم من العطاء الجزيل والتبجيل التكريم ، والحظ الوافر والفضل الجسيم ، فهو النبي الكريم المخصوص

بالخلق العظيم الموصوف بالتبجيل والتعظيم ، المنزل عليه في الآيات والذكر الحكيم ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ : [التوبة : ١٢٨] إن أولى ما استفتح به الإنسان ونطق به اللسان ، كلام من خلق الخلق والأنام للتفضل عليهم والإحسان إليهم ليس ذلك لحاجة ألجأته إلى إيجادهم ، ولا ضرورة أحوجته إلى انقيادهم ، إذ هو الغني على الإطلاق والذي لا تفنى خزائنه بكثرة الإنفاق ، ومن أعظم إحسانه وأكثر امتنانه على عباده إن أرسل إليهم صفيه الكريم ، ونبيه الجليل العظيم ، ورسوله الصادق الأمين ، الذي قال سبحانه في صفة إبلاغه ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ : [التكوير : ٢٤] فأطفأ بنور وجوده دياجي الكفر ، وأطلع في سماء الإيمان زهر الدراري ودراري الزهر ، وأضاء بأنواره غياهب الحنادس ، وأخمد به نار فارس ، وشق إيوان كسرى إنذار بزوال ملكه ، ورأى قيصر رؤياه الدالة على هلكه ، فيجب على أمته التي رفعها الله به على الأمم ، وطأطأ لها بسيوف عزمه شوامخ القمم ، أن يتخذوا ليلة ولادته عيداً من أكبر الأعياد ، ويجتهدوا في الفرح فيه غاية الاجتهاد ، ويتقربوا إليه بإكرام الغرباء والفقراء ، ويمتثلوا وصيته في إطعام اليتامى والأرامل والضعفاء ، ويتلوا قصة مولده على أسماع الأمم ، ويتحققوا عندهم ما أوجده الله بوجوده من الكرم ومحاسن الشيم ، ليتقرر في خواطرهم ماله عند الله من المكانة والإمكان ، وأنه ما خلق الله مثله من إنسان وها أنا أذكر مولده مسنداً عن الأئمة الصادقين وأتلوا قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ : [المؤمنون : ١٤] فقد روي عن مخزوم بن هانىء عن أبيه وكان قد بلغ من العمر مائة وخمسين سنة قال : ولد النبي ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول عام الفيل ، ولاثنتين وأربعين سنة من ملك كسرى أنوشروان ، ولثمان سنة وستة أشهر من ملك عمرو بن هند . وذلك أن عبد المطلب نام ليلة في الأبطح فرأى كأنه خرج منه سلسلة بيضاء لها أربعة أطراف : طرف بلغ مشارق الأرض ، وطرف بلغ مغاربها ، وطرف بلغ إلى عنان السماء ، وطرف رجع حتى صار شجرة خضراء ، فلما أصبح سأل عن ذلك ؟ فقالوا : إن صدقت رؤياك ليخرجنّ من صلبك من يؤمن به أهل السموات والأرض ، وروى كعب الأحبار ﷺ قال : لما أراد الله عز وجل خلق الموجودات ، وخفض الأرض ورفع السموات قبض قبضة من نوره وقال لها كوني محمداً فصارت عموداً من نور وأشرق حتى انتهى إلى حجاب العظمة فسجد وقال : الحمد لله ، فقال الله تعالى : لهذا خلقتك وسميتك محمداً منك أبدأ الخلق ، وبك أختم الرسل ، ثم إن الله عز وجل قسم نوره إلى أربعة أقسام : فخلق من القسم الأول اللوح ، ومن القسم الثاني القلم ، ثم قال الله تعالى للقلم : اكتب ، فارتعد من الهيبة ألف سنة ، فقال : يا رب وما أكتب ؟ قال :

اكتب لا إلـه إلا الله محمد رسول الله فكتب القلم ذلك فاهتدى إلى علم الله تعالى في خلقه فكتب : أولاد آدم لصلبه ، من أطاع الله أدخله الجنة ، ومن عصى الله أدخله النار ، أمة إبراهيم كذلك ، أمة موسى كذلك ، أمة عيسى كذلك حتى انتهى القلم إلى أمة محمد ﷺ فكتب أمة محمد من أطاع الله أدخله الجنة ومن عصى الله أراد أن يكتب أدخله النار ، فإذا النداء من العلي يا قلم تأدب فانشق من الهيبة وانقط بيد القدرة فصار ذلك عادة في القلم لا يكتب إلا أن يكون مشقوقاً مقطوطاً ، فقال له : اكتب : أمة مذنبة ورب غفور . ثم خلق الله عز وجل من القسم الثالث العرش ، ثم قسم القسم الرابع على أربعة أقسام : فخلق من القسم الأول العقل ، ومن الثاني المعرفة ، ومن الثالث نور الشمس والقمر ونور الأبصار والنهار ، فكل هذه الأنوار من نور النبي المختار فكان هو أصل المخلوقات كلها ، ثم بقي ذلك القسم الرابع من النور مستودعاً تحت العرش حتى خلق الله عز وجل آدم عليه السلام فوضع ذلك النور في ظهره وأسجد له الملائكة وأدخله الجنة فكانت الملائكة تقف خلف آدم صفوفاً ينظرون إلى نور محمد ﷺ فقال آدم : يا رب ما لهؤلاء الملائكة يقفون صفوفاً خلف ظهري ؟ قال الله تعالى : يا آدم ينظرون إلى نور حبيبي وصفوتي من خلقي محمد خاتم الأنبياء الذي أخرجه من ظهرك ، فقال آدم : يا رب اجعل هذا النور في مقدمي حتى يستقبلوني ولا يستدبروني فجعل الله ذلك النور في جبهته فكانت الملائكة تقف قبالة آدم فيسلمون على نور محمد ويصلون عليه ، فقال آدم : يا رب أريد أن يكون لي نصيب من هذا النور كما للملائكة فاجعله مني في كان أراه فنقل الله ذلك النور من جبهته إلى السبابة من يده اليمنى فكانت الملائكة تسبح فيسبح نور محمد ﷺ في أصبع آدم . فلذلك سميت من بين الأصابع المسبحة ، ثم قال آدم : يا رب هل بقي من هذا النور شيء في ظهري ؟ فقال : بلى بقي نور بقية صحابته ، فقال : يا رب اجعله في بقية أصابعي فجعل الله نور أبي بكر في أصبعه الوسطى ، ونور عمر في البنصر ، ونور عثمان في الخنصر ، ونور علي في الإبهام فما زالت هذه الأنوار تتلألأ في أصابع آدم ما دام في الجنة حتى أصاب من الشجرة ما أصاب فردّ الله تلك الأنوار إلى ظهره ، ثم إن الله عز وجل عرّف آدم قدر ما أودعه من السر ؛ وقال له : تطهر وسبح وقدس واغش زوجتك على طهارة منك ومنها ، فإني مخرج منكما نوري ، ففعل آدم ما أمر ربه فنقل الله ذلك النور من آدم إلى حواء فكان يرى في جبهتها دارة كدارة الشمس ، فلما وضعت شيثاً عليه السلام انتقل النور إلى جنين شيث عليه السلام ، فلما كبر وأخذ حدّ الرجال أخذ آدم عليه السلام العهد والميثاق ألا يودع هذا السر إلا في المطهرات من النساء ليصل إلى المطهرين من الرجال ، فانتقل ذلك النور من شيث إلى أنوش ، ثم إلى قينان ، ثم إلى مهلائيل ، ثم إلى يرد ، ثم إلى أخنوخ ، ثم إلى متوشلخ ، ثم إلى لمك ،

ثم إلى نوح عليه السلام ، ثم إلى سام ، ثم إلى أرفخشذ ، ثم إلى شالخ ، ثم إلى عابر ، ثم إلى فالع ، ثم إلى راغو ، ثم إلى ساروغ ، ثم إلى ناحور ، ثم إلى تارخ ، ثم إلى آزر ، ثم إلى إبراهيم الخليل عليه السلام ، ثم إلى إسماعيل ثم إلى قيذار ، ثم إلى نبت ، ثم إلى سلامان ، ثم إلى الهميسع ، ثم إلى اليسع ، ثم إلى أدد ، ثم إلى أدّ ، ثم إلى عدنان ، ثم إلى معد ، ثم إلى نزار ، ثم إلى مضر ، ثم إلى إلياس ، ثم إلى مدركة ، ثم إلى خزيمة ، ثم إلى كنانة ، ثم إلى النضر ، ثم إلى مالك ، ثم إلى فهر ؛ ثم إلى غالب ، ثم إلى لؤي ، ثم إلى كعب ، ثم إلى مرة ، ثم إلى كلاب ، ثم إلى قصي ، ثم إلى عبد مناف ، ثم إلى هاشم ، ثم إلى عبد المطلب ، ثم إلى عبد الله والد محمد ﷺ :

مـــازال نـــور محمـــد متـــنقلاً في الطيـبين الطـاهرين أولى العـلا
حـــتى لعبـــد الله جـــاء مطهـــراً ومكرمـــاً ومعظمـــاً ومـــبجلا

فلما أراد الله عز وجل إخراج تلك الوديعة من خزائن الأصلاب الرفيعة ، إلى كنز أحشاء آمنة المنيعة ، وظهرت لانتقال نوره الآيات ، وتباشرت به جميع المخلوقات ؛ نودي في جميع الأرض والسموات : يا عرش تبرقع بالوقار ، يا كرسي تدرع بالوقار ، يا كرسي تدرع بالفخار . يا سدرة المنتهى ابتهجي . يا أنوار المهابة تبلجي . يا جنان تزخرفي . يا حور من القصور أشرفي ، يا ملائكة الله اصطفي وتمنطقي بالعرش وحفي . يا رضوان افتح أبواب الجنان . وزين الحور والولدان . أطلق مجامر الطيب وعطر الأكوان . يا مالك أغلق أبواب النيران ، فإنّ النور المكنون والسر المصون المخزون . الذي في خزائن قدرتي في هذه الليلة من عبد الله ينفصل ، وإلى آمنة يتصل . وإلى أحشائها في هذه الساعة ينتقل . التي فيها يتم خلقه تماماً جلياً . ويخرج إلى الناس بشراً سوياً . فلما أذن الله سبحانه وتعالى في انتقال نور محمد ﷺ انتقل عشية الجمعة أول ليلة من شهر رجب الفرد . وقيل منتصف جمادى الآخرة وهو قول الواقدي ولم يبق في تلك الليلة دار ولا مكان إلا ودخله نور . ولا دابة إلا نطقت . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان من دلائل حمل آمنة برسول الله ﷺ أن كل دابة كانت لقريش نطقت تلك الليلة وقالت : حمل برسول الله ﷺ ورب الكعبة وهو أمان الدنيا وسراج أهلها . قالت آمنة : لما مر لي من حمله ستة أشهر مات أبوه عبد الله وأتاني آت في المنام فوكزني برجله ، وقال : يا آمنة أبشري فقد حملت بخير العالمين طراً ، فإذا ولدتيه فسميه محمداً واكتمي شأنك ، قالت : وفي مدة حملي به ما شكوت وجعاً ولا ألماً ولا ثقلاً ولا مغصاً ، ولقد حملت به تسعة أشهر كملاً . فلما حان وقت ولادتي أخذني ما يأخذ النساء ولم يعلم بي أحد من قومي وإني لوحيدة في المنزل وعبد المطلب في طوافه فمددت كف السؤال إلا من لا تخفى عليه خافية ، فإذا أتت بالأخت المواسية : امرأة فرعون آسية . ثم نظرت نوراً أضاء منه المكان . فإذا هي مريم ابنة عمران .

ثم شاهدت وجوهاً كالبدور . فإذا هم جماعة من الحور . فاشتد بي الطلق فاستندت على النساء . ثم أعانني عالم الغيب والشهادة على تسهيل الولادة ، فوضعت الحبيب معتمداً على يديه شاخصاً إلى السماء بعينيه ، حنت آسية عليه ، بادرت مريم إليه ، قبلت الحور قدميه ، نزل إلى المنزل جبريل ، حف به ميكائيل . جاء إلى خدمته إسرافيل أخفوه عن الأبصار . طافوا به جميع الأقطار . غمسوه في الجنة في سائر الأنهار . كتبوا أسمه على أوراق الأشجار . ثم عادوا على بالمفضل على الكونين . في أسرع من طرفة عين ، أخذته آسية تكحله فوجدته مكحولاً بكحل الهدى ، أرادت مريم أن تقطع سرته فوجدته مقطوع السرة قد زال عنه الردى ، قدمت حور العين أنواع الطيب ، طيبت به شمائل هذا الحبيب ، سارعت إلى طلعته المباركة ، ثلاثة من الملائكة ، مع أحدهم طست من الذهب الأحمر ، ومع الثاني إبريق من الجوهر ، ومع الثالث إبريق من السندس الأخضر ، فغسلوا وجه الحبيب بماء الإبريق ، وأخرجوا من الخرقة خاتم النبوة والتصديق ، وله لمعان وبريق ، وختموا به ظهر هذا النبي الشفيق ، فتم بذلك سعده والتوفيق ، وقيل لأمه آمنة : لا تدعي أحداً من العالمين ينظر إلى محمد الصادق الأمين ، حتى تنقضي عنه زيارة الملائكة المقربين . ولنا ولد محمد ﷺ وسقط اهتزّ العرش طرباً ، وزها الكرسي عجباً ، ومنعت الجنّ عن السماء ، وقالوا : لقد رأينا في طريقنا نصباً ، وضجت الملائكة بالتسبيح رغباً ورهباً ، ونشرت الرياح وأبدت سحباً ، وأمالت في الحدائق من الغصون قضباً ، ونادت الكائنات من جميع الجهات أهلاً وسهلاً ومرحباً :

نسيم الصبا أهلاً وسهلاً ومرحباً ... قدمت فأقدمت السرور إلى الربا
وجدّدت في كل القلوب مسرة ... ونشرك أضحى في الوجود مطيبا
متى أنظر الأعلام يا سعد قد بدت ... ويصبح قلبي من حماه مقرّبا
فقد زمزم الحادي بذكر محمد ... نبيّ كريم للشفاعة مجتبى
رسول عظيم مصطفى ذو مهابة ... له الله بالذكر المرفع قد حبا
فلولاه ما سار الحجيج لمكة ... ولا حنّ مشتاق لنجد ولا صبا

فسبحان من أطلع كواكب سعوده في الأكوان فطلعت ، وألمع بوارق جوده فلمعت ، وبثّ أنوار أقمار شهوده فتلألأت وسطعت ، وقطع آمال الكفار من مرادهم فانقطعت ، وأذل ملوكهم بعزه فذلت لهيبته وخضعت ، فالإنس بقدومه قد تآنست وارتفعت ، والجن من استراق السمع قد منعت ، والأملاك في الأفلاك قد سجدت وركعت ، وآمنة قد فازت بما حازت حين لجمال هذا الحبيب قد وضعت ، وحليمة الحليمة تشرفت إذ له أرضعت ، وألسنة المداح قد أثنت بشكره في الآفاق وأسمعت :

قلوبنا في الغرام قد ولعت ما فترت عنه لا ولا رجعت وأذننا شرفت ومسمعها
من طيب أذكاره التي سمعت طلعته تخجل البدور إذا ما ظهرت للعيون أو طلعت
وقده يخجل الغصون إذا ما نظرت قده له ركعت كل مليح له أقر كما
جوامح الحسن فيه قد جمعت محمد سيد الأنام ومن أعناق أعدائه له خضعت
جاءت لنا رحمة بمولده ومذ أمدت به فما انقطعت وفي ربيع جاءت بشائره
فمذ أتانا أسواؤنا دفعت فمثله في الأنام سائرة ما حملت حامل ولا وضعت
أفي الدنيا غيره بمولده أشرقت الأرض والسما سطعت وينزل الغيث والغياث به
ومن سناه البرق قد لمعت يا مولد المصطفى جمعت لنا أنواع بشر في القلوب قد زرعت
ويا ربيعاً لنا بمربعه أوقات أنس بالخير قد رفعت ليتك لو كنت دائماً أبداً
فإن أعدائنا بك انقمعت يا سيد المرسلين خذ بيدي فأدمعي من جنايتي همعت
واشفع لنا في المعاد يا أملي من حر نار الجحيم قد لذعت فمنك نرجو أن لا تخيبنا
يا من به الكائنات قد نفعت عليك صلى الإله ما سهرت عين وما في منامها هجعت

وآلك الطهر والصحاب ومن تحب من أمة لك اتبعت

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس الرابع والأربعون

في التنزيه ، وذكر الصالحين

الحمد لله الذي اعترف بفضله كل حاضر وبادي ، واغترف من بحر برّه كل رائح وغادي ، وهمعت بفضل وجوده عيون السحب الغوادي ، وسبح بحمده النهار الزاهر والليل الهادي ، ونطقت بحكمته الكائنات لذوي البصائر والعقول ، والسموات تقول : سبحان من رفعني بقدرته وأمسكني بقدرته فهو ركني وعمادي ، والأرض تقول : سبحان من وسع كل شيء علماً ، وفرش فراشه على الماء ومهد مهادي ، والجبال تقول : سبحان من قوّى أركاني وثبّت بنياني وأوتادي ، والبحار تقول : سبحان من بمشيئته أجراني وأسال عيوني وغدراني لورّادي وقصادي ، والعارف يقول : سبحان من دلني عليه وجعل إليه مرجعي ومعادي ، والعالم يقول : سبحان من فتح مسامع أفهامي ووفقني في أحكامي واجتهادي ، والعابد يقول : سبحان من أيقظني في الليل لنيل أوطاري وأقامني لأذكاري وأورادي ، والمذنب يقول : سبحان من اطلع عليّ في المعصية ورآني فسترني وغطاني وتاب عليّ لما تبت وهداني وأصلحني

بعد فسادي ، فسبحانه من إلـه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا وينادي : هل مـن تائـب فـأتوب عليه ؟ وأنظر إليه بعين ودادي ، هل من مستغفر فأغفر له ، وأريه طريق رشادي ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ وأنجز له بالفضل ميعادي ؟ هل من سائل فأعطيه ما سأل وأجـود عليـه بانعـامي وإرفادي ؟ فيا أيها الغافل إلى متى هذه الغفلة والتمادي ؟ انهض على قـدم النـدم والاعتـذار ، وداو بمداومة الأذكار قلبك الصادي ، وقف في الأسـحار بالذلـة والانكسـار بـين يـدي الملـك الجبار ونادي :

أتيـت إليـك يـا رب العبـاد ... بإفلاســي وذلي وانفــرادي ... وها أنـا واقـف بالبـاب أبكـي
زمانـاً مـا بلغـت بـه مـرادي ... عسـى عفـو يـبلغني الأمـاني ... فقد بعـد الطريـق وقـلّ زادي
فأنـت ذخـيرتي وبـك انتصـاري ... وفيـك تـولهي وبـك اعتمـادي ... وعنـك إشـارتي وإليـك قصـدي
ومنـك مسـرتي وبـك انقيـادي ... ومـالي حيلـة إلا رجـائي ... وفيك على المدى حسن اعتقادي
ولـو أقصـيتني وقطعـت حبلـي ... وحقـك لا أحـول عـن الـوداد ... فجـد بـالعفو يـا مـولاي وارحـم
عبيـداً ضـل عـن طريـق الرشـاد ... وقـد وافى ببابـك مسـتجيراً ... يخـاف مـن القطيعـة والبعـاد

توســل بــالنبيّ الطهــر حقــاً ... شــفيع الخلــق في يــوم المعــاد
عليــه مــن المهـيمن كــل وقــت ... صـلاة مـا حـدا بالركـب حـادي

[وعـن ثوبـان رحمـه الله] قـال : قـال رسـول الله ﷺ : « إن حوضـي مـن عـدن إلى عمـان إلى البلقاء ، ماؤه أشدّ بياضـاً مـن اللـبن وأحلـى مـن العسـل ، وأكوابـه عـدد نجـوم السـماء من شـرب منـه شـربة لم يظمـأ بعـدها أبـداً . أول النـاس وروداً عليـه فقـراء المهـاجرين » ، فقـال عمـر بـن الخطـاب ﷺ : هـم الشـعث رؤوسـاً الدنسـون ثيابـاً الـذين لا ينكحـون المتنعمات ولا تفتح لهم السدد أولئك أهل الله وخواصه من عباده :

رجـال لهـم حـال مـع الله صـادق ... فلا أنـت مـن ذاك القبيـل ولا أنـا
تحـوم علـى الـدنيا وتبغـي تزهـداً ... فـلا أنـت معـدود هنـاك ولا هنـا

[مرّ سريّ السقطي رحمه الله] برجل ملقى على الأرض ، وهو سكران والخمر يطفـح مـن فيـه ، وهو يقول : الله الله فرفع السريّ طرفه إلى السماء وقال : إلـهي إنسان يذكرك لا يكون هكـذا ثم دعا بماء فغسل فمه ، ثم تركه ومضى . فلما أفاق الرجال قالوا : إن الشيخ السـريّ قـد رآك ، وفعل معك خيراً وغسل فمك فخجل واستحى ولام نفسه ووبخها . وقال : ويحك يا نفس إن لم تستح من الله ومن أوليائه فممن تستحين ؟ ثم ندم وتاب مما كان فيه وبـات السـريّ فـرأى في منامه قائلا يقول له : يا سريّ أنت طهرت فمه لأجلنا ، ونحن طهرنا قلبه مـن أجلـك ، فلمـا أصبح السريّ سأل عن ذلك الرجل فوجده في بعض المساجد وهو قائم يصلي ، فلما فرغ قال

له السري : يا أخي كيف حالك ؟ فقال : يا سيدي كيف تسأل عن حالي ، وقد أخبرك الكريم أنه طهّر قلبي من أجلك وأصلح بالي ؟ قال : وقد أعلمك بهذا ؟ قال : الذي طهر قلبي من سواه ، وجاد عليّ بعفوه ورضاه :

من مثل ربك تعصيه وتهجره ... ويسبل الستر يا ذا الغدر فارتدع
يا ناقض العهد يا من حاله قبحت ... مع الإله بلا خوف ولا جزع
ضيعت عمرك تسويفاً بلا عمل ... تمسي وتصبح بين الحرص والطمع
وتسمع الوعظ لا تنهاك زاجرة ... بل أنت في غفلة عن ذاك فاستمع
فقم لتقرع باباً للذي كثرت ... للسائلين عطاياه وأنت معي
لعله أن يرانا تائبين له ... يمنّ بالعفو عن عصياننا الشنع

[قال ذو النون المصري رحمه الله تعالى] : رأيت غلاماً نحيفاً مصفر اللون دقيق الساقين يمشي في البرية بلا زاد ولا ماء ولا نعل فسلمت عليه وقلت له : ما لي أراك على هذه الحالة ؟ فبكى وأنشد :

ذاب مما بفؤادي بدني ... وفؤادي ذاب مما في البدن ... اقطعوا حبلي وإن شئتم صلوا
كل شيء منكمو عندي حسن ... صح عندي الناس أني واله ... غير أن لم يعلموا حبّي لمن

قال ذو النون المصري : ثم لا أدري أين ذهب ، يا هذا أطيب المعاملة ما طاب منهلاً ، وأعذب الموارد ما راق وحلا ، ما صفا عيش القوم حتى قلبهم في قليب الابتلا ، سكن قلوبهم بسكينة المسكنة وقطع منها أرباً وأملاً ، ونادى عليهم في سوق الشوق بين الملا ، أتصبرون على البلاء قالوا : بلى ، فسقاهم رحيق التوفيق ختامه مسك التصديق ، فعابوا على النفس وغابوا في فلوات التحقيق ، وتلذذوا بالفقر والفاقة في سلوك الطريق ، فأنسوا بخلواتهم في البرّ الأقفر ، لهم تهافت عند ذكر الحبيب الأكبر ، ولهم تواجد عند سماع « ربّ أشعث أغبر » كان أويس القرني رحمه الله إذا جاع يأتي المزابل فأتاها يوماً فإذا كلب ينبح عليه ، فقال له : لا تؤذ من لا يؤذيك أنت تأكل مما يليك ، وأنا آكل مما يليني ، فإن دخلت الجنة فأنا خير منك ، وإن دخلت النار فأنت خير مني :

ذل الفتى في الحبّ مكرمة ... وخضوعه لحبيبه شرف
وإذا تذلل عزّ قدراً في الهوى ... وأتته بعد الفاقة التحف

[وقال سري السقطي رحمه الله] : دخلت المقبرة فرأيت بهلولا المجنون على قبر يتمرّغ على التراب فقلت له : ما جلوسك ههنا ؟ فقال : أنا عند قوم لا يؤذونني ، وإن غبت عنهم لا يغتابونني فقلت له : الخبز قد غلا ، فقال : والله ما أبالي ولو حبة بدينار ، علينا أن نعبده كما

أمرنا ، وعليه أن يرزقنا كما وعدنا . وقيل : إن رابعة العدوية رحمها الله مرت برجل وهو يذكر الجنة وما أعد الله فيها ، فقالت له : يا هذا إلى متى تشتغل بالأغيار عن الواحد الجبار ؟ ويحك عليك بالجار ثم الدار ، فقال لها : اذهبي يا مجنونة فقالت : أنا لست بمجنونة ، وإنما المجنون من لم يفهم ما أقول يا مسكين الجنة سجن من لم يكن الله أنيسه ، والنار بستان من كان الله مؤنسه وجليسه ، ألا ترى إلى آدم لما كان في الجنة كان يرتع ويتهنى فلما تعرض للأكل من الشجرة صارت عليه سجناً ، وإبراهيم الخليل لما حفظ سره لمولاه قربه واجتباه ، فلما طرح في النار صارت عليه برداً وسلاماً :

فروحي وريحاني إذا كنت حاضراً ... وإن غبت فالدنيا عليّ محابس
إذا لم أنافس في هواك ولم أغر ... عليك ففيمن ليت شعري أنافس

[قيل : كان حبيب النجار رحمه الله] من الأولياء الأخيار الأتقياء الأبرار يقوم الليل ويصوم النهار ، ويؤثر بطعامه عند الإفطار ، ويبيت طاوياً في خدمة الملك الغفار ، فإذا كان وقت الأسحار ناجى ربه ، وقال بلسان الذلة والانكسار : غرقت في بحار غفلتي ، وركضت في ميدان صبوتي ، وعثرت بأذيال ذلتي ، وتحيرت في بيداء شقوتي ، ومالي غيرك أعتمد عليه ، ولا أعرف باباً غير بابك فألتجىء إليه ، وها أنا عبدك الذليل المذنب العليل قد وقفت ببابك ولذت بجنابك ، فإن لم ترحمني فيا ذلي ويا شقوتي ، وإن لم تعف عني فيا طول حسرتي ، ثم يسجد فلا يرفع رأسه حتى يطلع الفجر ، فإذا صلى وفرغ شرع في القراءة من أول الختمة إلى آخرها بقية يومه فلما مات كان آخر آية تلاها في سورة يس قوله تعالى ﴿ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ : [يس : ٢٤] فلما دفن سأله ملائكة ربه عن الإيمان . فقال : ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ : [يس : ٢٥ ـ ٢٦ـ٢٧] فلله درّهم من أقوام قاموا يناجون الحبيب والناس نيام ، يتحملون أثقال الوجد والغرام ؛ ويفرحون بالليل إذا جنّ الظلام ، فهم غداً في جنان الخلد يتنعمون ، وإلى وجه الحبيب ينظرون ، ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا يحزنون :

لله قوم بذكره اشتغلوا ... وفي حمى قربه لقد نزلوا ... ليس لهم غير ذكره فرح
لهم حقيقاً عليه قد حصلوا ... من ذاق وصل الحبيب هام ولم ... يحل له منزل ولا طلل
بروحهم في وصاله سمحوا ... وحققوا ربحهم وما جهلوا ... قاموا يناجونه وقد عملوا
بأنهم للمعاد قد عملوا ... فاستعذبوا الصعب في هواه وقد ... لذّلهم في رضاه ما حملوا

[قال أبو بكر بن عبد الله رحمه الله] : تهت في بادية العراق أياماً فلم أجد شيئاً أرتفق به فبينما أنا سائر إذ رأيت خيمة من شعر لبعض العرب فقصدتها فإذا على باب الخيمة ستر مسبل

فسلمت فردّت علي السلام عجوز من داخل الخباء ، وقالت : من أين الرجل ؟ قلت : من مكة ، قالت : وأين تريد ؟ قلت : الشام ، قالت : أرى سيحك سيح البطالين هلا لزمت زاوية تعبد الله فيها إلى أن يأتيك اليقين ثم تنظر في هذه الكسرة التي تأكلها إن كانت من حلال فتجوهر باطنك ثم قالت لي : أتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم قالت : فاقرأ عليّ آخر سورة الفرقان فقرأتها فصرخت وأغمي عليها فلمّا أفاقت قالت : لما قرأت هذه الآيات اقشعر جلدي لقراءتها ثم قالت لي : اقرأها ثانية فقرأتها فلحقها مثل ما لحقها في المرة الأولى ثم مكثت طويلاً فقلت في نفسي : ترى ماتت أم لا ؟ فرجعت ذاهباً مقدار نصف ميل فأشرفت على واد فيه عرب فابتدرني غلامان ومعهما جارية فقال لي أحد الغلامين : يا هذا أتيت على الخيمة الشعر التي بالفلاة ؟ قلت : نعم قال : قرأت القرآن عند العجوز ؟ قلت : نعم قال : ماتت ورب الكعبة ، فمضيت مع الغلامين حتى أتينا الخيمة فدخلت الجارية وكشف عن وجه العجوز فإذا هي ميتة فعجبت من خاطر الغلام ثم قلت للجارية : من هذان الغلامان ؟ فقالت : هما شريفان جعافرة وهذه أختهما منذ ثلاثين سنة لم تستأنس بكلام أحد من الناس وإذا نزلوا بواد انفردت عنهم وضربت خيمتها في الفلاة وحدها ، وكانت تأكل كل ثلاثة أيام مرة واحدة .

[**إخواني**] إلى متى تشتغلون في اللذات الفانيات عن الباقيات الصالحات ، بادروا الأوقات واستدركوا الهفوات وكفوا عن الشبهات ، أما أيقظكم منادي الشتات ، أما هزّكم حديث الصالحين والصالحات ، إذا جاء النهار قطعوه بمقاطعة اللذات ، وإذا أقبل الليل ضجوا فيه بحنين الأصوات ، ليس لهم إلى غير محبوبهم التفات ، فهم الأبطال والسادات :

حياتنا باطل غرور ... وعمرنا ذاهب قصير
والناس في غفلة نيام ... وقد دعتهم لها القبور
والعمر يمضي وليس ندري ... مثل سفينٍ بنا تدور
يا نفس ما سرّ فهو حزن ... لا تحسبي أنه سرور
تذكري الموت واستعدي ... له فقد جاءك النذير

[قال عبد الرحمن القرشي] : كنت أصحب إبراهيم بن أدهم وأسوح معه فسرنا في طريق الحجاز ثلاثة أيام لم نستطعم فيها بطعام ولا شراب فقلقت فعرف ما بي من الجوع فجلس ورنق وجلست إلى جانبه ، وإذا برغيف سخن سقط في حجري فرفع إبراهيم رأسه وقال لي : كل فأكلت نصفه فشبعت ثم سرنا فمررنا بقافلة قد حبسها الأسد عن المسير فتقدم إبراهيم إليه وقال له : يا قسورة إن كنت قد أمرت فينا بشيء فامض لما أمرت به وإلا فاذهب فولى الأسد هارباً وسار القوم فقالوا له : بالله عليك يا سيدي إلا ما دعوت لنا فنحن نخاف في السفر ، فقال

لهم : قولوا اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام ، واكنفنا بكنفك الذي لا يضام ، وارحمنا بقدرتك علينا ، لا نهلك وأنت رجاؤنا . قال عبد الرحمن : فلقيت رجلاً من أهل القافلة بعد مدة فسألته ، فقال : والله مذ كنا ندعو بهذا الدعاء الذي علمنا الشيخ ما مرّ بنا سبع ولا لص ولا مرجف ثم ركب معنا ذلك الرجل في مركب في البحر فعصفت الريح وهاجت الأمواج واضطرب المركب وخفنا الغرق فبكى الناس وضجوا فقال : الرجل : يا قوم معنا في السفينة شيخ صالح كان من أمره كيت وكيت فسلوه أن يدعو لكم فأتيناه وهو نائم في ناحية السفينة ملفوف رأسه في الكساء فأيقظناه وقلنا له : يا سيدي أما ترى ما الناس فيه من الشدة فرفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم أريتنا قدرتك فأرنا عفوك ، قال : فما استكمل كلامه حتى سكنت الريح وهدأ الموج وسارت السفينة . قال عبد الرحمن : فلما نزلنا من السفينة سرنا أياماً فهلكت من الجوع فشكوت إليه فأخذ المزود ورقى إلى شجرة البلوط فملأ المزود ثم أتى به فإذا هو رطب جني فما أكلت شيئاً ألذ منه ولا أطيب . قال : وعطشت معه في بعض السياحات ليلاً فشكوت إليه ذلك ، فقال لي : اشرب فنظرت فإذا دلو قد دُلي من الهواء وفيه ماء لم أذق أطيب منه طعماً ولا أحسن ريحاً فشربت منه حتى رويت فكنت بعد ذلك أصوم في الهواجر فلا أجوع ولا أعطش ، هؤلاء والله الأقوام صفوة الملك العلام :

قوم إذا عبث الزمان بأهله ... كان المفر إلى الزمان إليهم ... وإذا أتيتهمو لتدفع ملمة
جادوا عليك بما يكون لديهم ... فإذا أتيتهمو أنخ بجنابهم ... أو لا تنخ فاقر السلام عليهمو

فلله درهم من رجال ما تركوا في قلوبهم لغير محبوبهم من مجال قد أسبلوا العبرات على الوجنات ووصلوا الزفرات بالحسرات ، ونادوا : يا من لا تحيط به الصفات ، أنقذنا من ظلم الآفات ، فلو تراهم وقد براهم الوجد ، وأنحلهم الشوق ولم يشكوا ألماً ولا ضرراً ، وناجاهم الحبيب وناداهم بالترحيب سحراً ، وركبوا خيل الليل وساروا فحمدوا عند الصباح السري :

لله درّ رجال واصلوا السهرا ... واستعذبوا الوجد والتبريح والكفرا
قوم نجوم الهدى في الليل تعرفهم ... هم الملوك هم السادات والأمرا
كل غدا قلبه بالله مشتغلاً ... عمن سواه وللذات قد هجرا
يمسي ويصبح في وجد وفي قلق ... مما جناه من العصيان منذعرا
يقول يا سيدي قد جئت معترفاً ... بالذنب فاغفره لي يا خير من غفرا
حملت ذنباً عظيماً لا أطيق له ... ولم أطع سيدي في كل ما أمرا
عصيته وهو يرخي ستره كرماً ... يا طالما قد عفا عني وقد سترا
يا طالما كان لي في كل نائبة ... إذا استغثت به في كربة نصرا

وإنـني تائـب ممـا جنيـت وقـد ... وافيـت بابـك يـا مـولاي معتـذرا
لعـلّ تقبـل عـذري ثم تجـبرني ... يوم الحساب إذا وافيت منكسرا
وقـد أتيـت بـذلي راجيـاً كرمـاً ... إليـك يـا سـيد السـادات مفتقـرا
وقد تشفعت بالهادي البشير ومن ... فـاق النبـيين والأمـلاك دون مـرا
تالله لو لم يكـن في الأرض مـا نبتت ... زرعاً ولا أنـزل البـاري بهـا مطـرا
مـتى أسـير إلى ذاك الجنـاب مـتى ... أحظـى برؤيتـه أقضـي بهـا وطـرا
صلى عليه إلـه العـرش مـا ركضـت ... نوق ومـا زمـزم الحـادي لهـا وسـرى

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس الخامس والأربعون
في محبة الله عزّ وجل

الحمد لله ذاكراً من كان له ذاكراً ، وشاكر من كان له شاكراً ، الذي عمت رحمته أوّلاً وآخراً ، وكفلت نعمته مؤمناً وكافراً ، وأسهر عيون أهل محبته في خدمته ، فالسعيد من بـات في طاعتـه ليلاً ساهراً ، شغلهم بحبه ولذذهم بعتبه فأصبح شذاهم بتقـواهم في الأكـوان عابقـاً عـاطراً ، سامرهم في خلوة التقريب عند غفلة الرقيب ، ويا فوز من له الحبيب مسامراً ، سـقوا بسـاتين أشجانهم بماء دموع أحزانهم فأصبح روض إيمانهم زاهياً زاهراً ، وخربوا ربوع هواهم زهـداً في دنياهم ورغبة في أخراهم فأضحى ربيع تقـواهم بمـولاهم عـامراً ، دعـاهم إلى مشـاهدة جمالـه وجعل لهم من الجزيل نواله وأفضاله نصيباً وافراً :

فهـم الـذين تمزقـوا في حبـه ... وتهتكـوا فـرأوا جمـالاً بـاهرا
فوجـوههم بضـيائه قـد أشـرقت ... وشـذاهمو في الكـون أصـبح عـاطرا
ركبوا نجائب شـوقهم تحـت الـدجى ... فلأجـل ذا حمـدوا سـراهم بـاكرا
قـد خصـهم بـالقرب منـه وبالرضـا ... وكسـا وجـوههم ضـياء مزهـرا
مـولى إذا العاصـي ألمّ ببابـه ... غفر الـذنوب لـه وأضـحى سـاترا
وإذا أتـاه الطـالبون لفضـله ... أعطـاهمو منـه نصـيباً وافـرا

فسبحانه من إلـه لم يزل عظيماً قادراً حليماً غافراً ، كريماً ساتراً حاكمـاً علـى الخلائـق بسـطوته

قاهراً ، عادلاً في حكمه لا خائفاً ولا جائراً ، من عامله أربحه بعدما كان خاسراً ، ومن لجأ إليه بذله وفقره كان لذله راحماً ، ولكسره جابراً ، ومن عصاه بجهله ثم تاب إليه من قبيح فعله كان لذنوبه غافراً ، ومن ذكره في نفسه كان له بين ملائكة قدسه ذاكراً ، ومن تقرّب منه شبراً تقرّب منه ذراعاً وافراً ، من طلبه عند شدّته ودعاه عند كربته وحده لضره كاشفاً ولخذلانه ناصراً :

أنت الذي ما زلت مني حاضرا ... ولناظري يا نور عيني ناظرا
ولقلبي الملهوف شغلاً شاغلاً ... ولمسمعي أبداً حديثاً سائرا
فإذا نظرت فأنت قبلة ناظري ... حيث اتجهت رأيت نوراً باهرا
وإذا سمعت فعنك أسمع دائماً ... وإذا نطقت فعنك أروي ماهرا
أنت الذي مازلت لي في وحدتي ... عند انفرادي مؤنساً ومسامرا
ما رمت منك على الحقيقة نصرة ... إلا وجدتك لي معيناً ناصرا
كلا ولا ناديت في غسق الدجى ... يا رب إلا كنت مني حاضرا
أبداً يناجيك الضمير وطالما ... أبدى العيان له دليلاً طاهرا
فلأنت سري في الفؤاد ولم تزل ... في خاطري في كل وقت حاضرا
يا من غدا مأوى الطريد ومن له ... باب ينيل الوفد برّاً وافرا
أنعم وجد فرضاك غاية مقصدي ... وسحاب دمعي فيك أضحى ماطرا
فامنن عليّ بتوبة أمحو بها ... وزري وكن لي بعد كسرى جابرا

أحمده أوّلاً وآخراً ، وأشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له شهادة مخلصة ليس فيها شك ولا مراً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي نبع الماء من بين أصابعه وجرى ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما حدا الحادي إليه وسرى .

[**إخواني**] اعلموا أن المحبة معنى يدق في الأفكار ، ويخفي عن الأسرار ، فهي للخواص نور ، وللعوام نار ، ما علق الحب بقلب امرىء ولا حلّ إلا تلاشى واضمحل ، فالحب حرفان حاء وباء ، فحاؤه حتف وباؤه بلاء ، فهو في الحقيقة داء ، يستخرج لذائقه من صفو رائقه دواء وشفء ، فأوله فناء وآخره بقاء ، وظاهره تعب وعناء ، وباطنه سرور وهناء ، هو لمن جهله شقاء ، ولمن عرفه شفاء ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ : [فصلت : ٤٤] فالناس في المحبة على أنواع وأجناس ، ومحبو الله هم خلاصة الناس . قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ : [البقرة : ١٦٥] قال ابن عباس : أثبت وأدوم . وذلك أن المشركين كانوا إذا عبدوا صنماً ورأوا شيئاً أحسن منه تركوا

ذلك الوثن وأقبلوا على عبادة الأحسن . وقال عكرمة : أشد حباً لله في الآخرة . وقال قتادة : إن الكافر يعرض على معبوده في وقت البلاء ويقبل على الله تعالى وذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ : [العنكبوت : ٦٥] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ : [الإسراء : ٦٧] والمؤمن لا يعرض عن الله في السرّاء والضرّاء والرخاء والبلاء ولا يختار عليه سواه . وقال الحسن : إن الكافرين عبدوا الله واسطة . وذلك قولهم للأصنام : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ : [الزمر : ٣] وقولهم : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ : [يونس : ١٨] والمؤمنون عبدوا الله تعالى بلا واسطة وذلك قوله عزّ وجل ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ :[البقرة : ١٦٥] وقيل : لأن المشركين يحبون أنداداً كثيرة فحبهم مشترك . وأما المؤمنون فحبهم غير مشترك لأنهم يحبون إلهاً واحداً . وقيل : إن الكفار يتخذون معبودهم مصنوعهم ، والمؤمنون يرون الله تعالى صانع كل مصنوع وخالق كل مخلوق . وقيل : لأنهم أحبوا الأصنام وعاينوها ، والمؤمنون يحبون الله تعالى ولم يعاينوه بل آمنوا بالغيب فلأجل ذلك وعدهم الله بالنظر إليه في الآخرة ، وقيل : إنما قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ لأن الله عزّ وجل أحبهم أولاً ثم أحبوه ثانياً ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتم وأصح ، قال الله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ : [المائدة : ٥٤] .

[وقال سفيان الثوري] في قول الله عزّ وجل : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] قال : هو الحب ، وقال أبو الدرداء ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « كان داود عليه السلام يقول : اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك ، والعمل الذي يبتغي حبك . اللهم اجعل حبك أحب إليّ من نفسي وأهلي ومن الماء البارد » .

[وعن أنس بن مالك ﷺ] قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحب الله تعالى فليحبني ، ومن أحبني فليحب أصحابي ، ومن أحبّ أصحابي فليحب القرآن ومن أحب القرآن فليحب المساجد فإنها أبنية أذن الله تعالى برفعها وتطهيرها وبارك فيها فهي ميمونة ميمون أهلها محبوبة محبوب أهلها فهم في صلاتهم والله تعالى في حوائجهم ، وهم في مساجدهم والله تعالى في نجح مقاصدهم » .

[وعن أبي هريرة ﷺ] قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل » وفي رواية : « قال لجبريل عليه السلام ناد في أهل السماء والأرض أن الله عزّ وجل يحب فلاناً فأحبوه فعند ذلك يلقى حبه في الأرض ويقع في الماء فيشربه البر والفاجر فيحبه البر والفاجر وإذا أبغض الله عبداً أمر الله تعالى جبريل أن ينادي بالعكس من ذلك فيبغضه البر والفاجر » . وفي

هذا الخبر حكاية عن ثابت البناني رحمه الله أنه دخل على خليفة من الخلفاء . فقال له الخليفة : ما كان يدعو صاحبك صالح اليماني رحمه الله في دعائه ؟ فقال ثابت : كان يقول في دعائه : اللهم حببني إلى قلوب عبادك ، فقال الخليفة على سبيل الاستخفاف : وهذا كان دعاؤه ؟ فقال ثابت : أتستخف في هذا الدعاء وقد سمعت أنس بن مالك ﷺ يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى إذا أحبّ عبداً نادى جبريل عليه السلام إني أحب فلاناً فأحبوه » إلى آخره ، فقال الخليفة : تبت إلى الله تعالى وأنبت ، قال ثابت : فرجعت إليه من الغد فقام بين يديّ وعانقني وقبل رأسي ، وقال : نبهك الله كما نبهتني ، إني رأيت البارحة في المنام كأني دخلت على رسول الله ﷺ في مسجده ، فقال دم على قولك : اللهم حببني إلى قلوب العباد ، فإن أولياء الله لا يحبون عبداً إلا بعد أن يحبه الله ، ثم سلمت عليه وانصرفت .

[وكان أبو يزيد البسطامي رحمه الله] يقول في مناجاته : إلـهي لست أعجب من حبي لك وأنا عبد حقير ، وإنما أعجب من حبك لي وأنت ملك قدير . وكان يحيى بن معاذ الرازي يقول في مناجاته : إلـهي ليس العجب من عبد ذليل يحب ربّاً جليلاً ، بل العجب من رب جليل يحب عبداً ذليلاً .

[وقال بعض العارفين] : الحب حب يبذر في أرض القلوب ويسقى بماء العقول فيثمر على قدر طيب الأرض وصفو الماء ، فالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً .

[وعن أنس بن مالك] عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاث من كنّ فيه وجد بهن حلاوة الإسلام : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » .

[وعن أبي هريرة ﷺ] قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة أين المتحابون لجلالي ؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » .

[وعن معاذ] قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » .

[وقيل] : كانت لعبد الله بن الحسين جارية أعجمية . قال : فكانت ذات ليلة نائمة فرأيتها قامت وتوضّأت ، ثم قامت تصلي ، فلما فرغت خرت ساجدة ، وهي تقول : سيدي بحبك لي إلا ما غفرت لي فقلت لها : ويحك لا تقولي هكذا ، ولكن قولي بحبي لك فربما هو لا يحبك . فقالت لي : يا بطال لولا حبه لي لما أنامك وأوقفني بين يديه ، وبحبه لي أخرجني من دار المشركين وكتبني في ديوان المؤمنين ، فقلت لها : اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى . قالت : يا

مولاي أسأت إليّ كان لي أجران فصار لي أجر واحد ، ثم صرخت صرخة وقالت : هذا عتق مولاي الأصغر فكيف عتق مولاي الأكبر ، ثم خرّت ميتة . هذه والله صفات المحبين المتعلقة قلوبهم بحب رب العالمين :

الحب فيه حلاوة ومرارة ... وتنسك وتهتك ببشائر
ما شاء يصنع بالمحب فإنما ... حكم الهوى بيد الحبيب الآمر
لو كنت أملك في الهوى أمر الذي ... أهوى لكان مؤانسي ومسامري
لكن قيادي في يديه فتارة ... يجفو وطوراً حين يحنو زائري

[قيل] لبعض المحبين : كيف رأيت المحبة ؟ فقال : وقفت على ساحل بحر زاخر ماله من آخر فقرب مني قارب : « من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً » ، فكبت موافقة له واتباعاً ، فأجابت الروح من دعاها : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ : [هود : ٤١] ، فلما توسطت اللجة توعرت سبل المحبة فما زلت حتى جمعني في مجمع بحري ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ : [المائدة : ٥٤] فأنا بين البقاء والفناء ، حتى أصل ذلك الفناء :

حروف المحبة مرموزها ... يبشرنا ببلوغ المنى ... فميم الممات وحاء الحياة
وباء البلاء وهاء الهنا ... فلا تطمعنّ بطيب اللقا ... وطول البقا بدون الفنا
حمينا الوصال بحد النصال ... فإن تلق سمر القنا تلقنا ... فلا تجزعن لمرّ النكال
وحر الوبال ففيه الهنا ... ومت مثل ما مات أهل الهوى ... وذابوا اشتياقاً فنالوا المنى

[وعن أبي سليمان الداراني رحمه الله] أنه كان يقول في بعض مناجاته : سيدي لئن طالبتني بذنوبي لأطالبنك بعفوك ، ولئن طالبتني ببخلي لأطالبنك بجودك وكرمك ، ولئن طالبتني بإساءتي لأطالبنك بإحسانك . ولئن أدخلتني النار لأخبرن أهل النار بأني أحبك ، فنودي أن يا أبا سليمان لا ندخلك النار بل ندخلك الجنة فتخبر أهلها بمحبتنا ، ولا تخبر أهل النار بمحبتنا فإن مكان المحبين الجنة ، ومكان الأعداء النار :

من ألم الهجر إليك الفرار ... يا سالبي في الحب طيب القرار ... عذب بغير الهجر قلبي تجد
له على غير جفاك اصطبار ... النار مع أنسك لي جنة ... وروضة الجنة إن غبت نار
يهواك طرفي وفؤادي معاً ... والروح من هذا وهذا تغار ... فإن دخلت النار أخبرتهم
أني محب لك لكن أغار ... عليك أن قالوا محب له ... عذابه بين الأعادي جهار

[**إخواني**] المحبة عروس ، مهرها النفوس ، ولها تخضع الرقاب والرؤوس ، فهي تجلى على الأسرار وتصفو بها الأكدار ، فهي للعارف نور وللجاهل نار ، إذا مزجت خمرة المحبة على أهل الصفاء حضرت قلوب أهل الوفاء ، فالذكر ألحانها ، والتوحيد ريحانها ، والشكر ترجمانها

والهيبة سلطانها ؛ فأهل المحبة فتحت لهم أبواب جنة الوصال يتنعمون فيها بالغدو والآصال ، والحبيب يتجلى عليهم بلا حجاب ، وملائكة السرور يدخلون عليهم من كل باب . فالذين يتلون الكتاب طوبى لهم وحسن مآب . والذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب متكؤون فيها على الأرائك نعم الثواب .

[كان وكان]

ما كل واصل موصل ولا العنا يدفي المناب هذي سوابق لواحق لمن يشا الوهاب
كم قد رأينا عاشق صادق وآخر يدّعي هذا مجالس مؤانس وذاك برا الباب
لاتدّعي الحب فينا وفي فؤادك غيرنا نخاف عليك ينادي يا مدعي كذاب
لكن إذا شئت فاصبر على مرارات الشقا واخضع إذا شئت تحسب من جملة الأحباب

[وعن يوسف بن الحسين رحمه الله] قال : سمعت ذا النون المصري يقول : بينا أنا مار في شوارع مصر إذ رأيت جارية مسفرة بغير خمار ، فقلت لها : يا جارية أما تستحين أن تمشي بغير خمار ؟ فقالت : يا ذا النون وما يصنع الخمار بوجه قد علاه الاصفرار ؟ فقال ذو النون : ومن أي شيء علاه الاصفرار ؟ قالت : من محبته ، فقلت : يا جارية عساك تناولت شيئاً من شراب القوم . فقالت : اسكت يا بطال شربت بكأس ودّه ونمت مسرورة ، فأصبحت بحب مولاي مخمورة . فقلت : يا جارية عسى فائدة أنتفع بها منك أو وصية أرويها عنك فقالت : يا ذا النون عليك بالسكوت حتى يتوهموا أنك مبهوت ، وارض من الله بالقوت يُبْنَ لك بيتاً في الجنة من ياقوت ، ثم أنشدت :

تهتك ولا تخش في الحب عارا وإياك إياك تبدي استتارا وبادر إلى الباب مع فتية
لهم في الظلام عيون سهارى وإن خفت عند المسير الضلال فوجه حبيبك يهدي الحيارى

أيها العارف إذا سرى نسيم المحبة إلى مسامّ القلوب ، ارتاحت إلى لقاء المحبوب ، فسمعت المناجاة في الأسحار لأهل القلوب والأسرار ، فكل أجاب على حسب ما حصل له من الأحوال المترجمة على لسان الحال : أيها الحزين علينا كيف وصلت إلينا ؟ قال : ركبت جواد توكلي عليه واشتياقي إليه فلما شعرت إلا وأنا بين يديه : أيها الخائف من الفوت كيف رأيت الموت ؟ قال : استعذبت التعذيب في رضا الحبيب ، فرأيت فضله سابقاً وجواد عزمي لاحقاً ، فكيف لا أرجو أن أنجو وأنا برحمته واثق : أيها الزاهد كيف عهدك بتلك المعاهد ؟ قال : سمعته يقول : في البذل والإنفاق ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ : [النحل : ٩٦] فتركت ما عندي لما عنده وغمضت عيني على الفاني فما فتحتها إلى على الباقي : أيها المحب لنا كيف كان اتصالك بنا ؟ قال : وهل كانت إلا شربة شربتها في حضرة : يحبهم . فسكرت بها في خلوة :

ويحبونه . فما أفقت من ذلك المشروب إلا بمشاهدة المحبوب :

لما علمت بأن قلبي فارغ ... من سواك ملأته بهواك
وملأت كلي منك حتى لم أدع ... مني مكاناً خالياً لسواك
فالقلب فيك هيامه وغرامه ... والنطق لا ينفك عن ذكراك
والطرف حيث أجيله متلفتاً ... في كل شيء يجتلى معناك
والسمع لا يصغي إلى متكلم ... إلا إذا ما حدّثوا بجلاك

[وروي عن الربيع من خيثم رحمه الله] أنه كان يديم السهر فقالت له ابنته : يا أبت من أفضل خلق الله عزّ وجل ؟ قال : محمد ﷺ ، قالت : بحرمة محمد نم هذه الليلة ، فقال : يا رب أنت تعلم أن السهر أحب إليّ من النوم ولكن لأجل ما أقسمت ابنتي عليّ بمحمد أنام هذه الليلة فنام فرأى في المنام أن في البصرة أمة يقال لها ميمونة تكون زوجتك في الجنة . فلما أصبح خرج إلى البصرة ، فلما سمع أهل البصرة بقدومه تلقوه ، فلما دخل قال : عندكم امرأة لها ميمونة ؟ قالوا : وما تصنع بميمونة المجنونة هي ترعى الغنم بالنهار وتشتري بأجرها تمراً فتفرقه على الفقراء وتصعد في الليل على سطح لها أحداً ينام من كثرة البكاء والصياح قال لهم : فما تقول في صياحها ؟ فقالوا : تقول :

عجباً للمحب كيف ينام ... كل نوم على المحب حرام

فقال : والله ما هذا كلام المجانين ، دلوني عليها ، فقالوا : هي في البراري ترعى الأغنام فخرج إليها فوجدها قد اتخذت محراباً وهي وتصلي فيه ورأى الغنم ترعى والذئاب تحرسها فتعجب من ذلك . قال الربيع : فلما فرغت من صلاتها قلت : السلام عليك يا ميمونة قالت : وعليك السلام يا ربيع ، قلت : كيف عرفت اسمي ؟ قالت : سبحان الله الذي عرفني باسمك الذي أخبرك البارحة في المنام أني زوجتك ولكن ليس الموعد ههنا ، الموعد بيننا غداً في الجنة فقلت لها : كيف اجتماع الذئاب بالغنم ؟ فقالت : لما تعلق حبه بقلبي واحتكم ، تركت الدنيا من قلبي فأصلح ما بين الذئاب والغنم ، ثم قالت : يا ربيع أسمعني شيئاً من كلام سيدي فقد اشتاقت نفسي إليه فقرأت : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ : [المزمل : ١-٢] وهي تسمع وتبكي وتضطرب إلى أن وصلت إلى الله تعالى : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ : [المزمل : ١٢ـ١٣] فصرخت صرخة فخرّت ميتة فتحيرت في أمرها فجاءت جماعة من النساء فقالت : نحن نغسلها ونجهزها فقلت : من أين عرفتنّ موتها ؟ قلن : كنا نسمع دعاءها وهي تقول : اللهم لا تمتني إلا بين يدي الربيع . فلما سمعنا بحضورك إليها علمنا أن الله استجاب دعاءها . إخواني إذا أصلح الله أرض قلب قلبها بمحراث الخوف وبذر فيها حب الحب وسقاها

بماء الدمع فأنبتت زرع ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ : [المائدة : ٥٤] سبحوا في بحر حبه وعاموا ولازموا الخدمة على بابه وقاموا وواظبوا على امتثال أوامره وداموا وتولهوا فيه فلأجل ذلك سهروا في الليل ولم يناموا فإذا ماتوا من حبه شوقاً إليه لم يلاموا :

أهل المحبة بالمحبوب قد شغلوا ... وفي محبته أرواحهم بذلوا
وخربوا كل ما ينفى وقد عمروا ... ما كان يبقى فيا حسن الذي عملوا
لم تلههم زينة الدنيا وزخرفها ... ولا جناها ولا حلْيٌ ولا حلل
هلموا على الكون من وجد ومن طرب ... وما استقلّ بهم ربع ولا طلل
داعي التشوق ناداهم وأقلقهم ... فكيف يهدوا ونار الشوق تشتعل
من أول الليل قد سارت عزائمهم ... وفي خيام حمى المحبوب قد نزلوا
وافت لهم خلع التشريف يحملها ... عرف النسيم الذي من نشره ثملوا
هم الأحبة أدناهم لأنهمو ... عن خدمة الصمد المحبوب ما غفلوا
سبحان من خصهم بالقرب حين قضوا ... في حبه وعلى مقصودهم حصلوا

[وقال عبد الله بن الفضل رحمه الله] : لما توفي يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله رؤي في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، قيل بماذا ؟ قال : كنت أقول في مناجاتي إلهي إن كنت مقصراً في خدمتك ، فما كنت مقصراً في محبتك .

[وقال ذو النون المصري رحمه الله] : سمعت برجل باليمن قد سما على المحبين وفاق على المجتهدين وعرف بالعلم والحكمة فخرجت حاجاً . فلما قضيت نسكي مضيت إليه لأسمع كلامه وأنتفع بموعظته أنا وأناس معي يطلبون مثل ما أطلب ، وكان معنا شاب عليه سيما الصالحين وشعار المحبين ، فخرج الشيخ إلينا فجلسنا إليه فبدأ الشاب بالسلام والكلام ، فصافحه الشيخ ، أقبل عليه ، فقال له الشاب : يا سيدي قد جعلك الله طيباً لأسقام القلوب وبي جرح قد أعيا الأطباء ، فإن رأيت أن تتلطف بي ببعض مراهمك فافعل . فقال الشيخ : عما بدا ذلك فاسأل . فقال : ما علامة الحب لله ؟ قال : أن تنزل نفسك منزلة السقيم ألا تراه يحتمي عن الطعام حذاراً من السقام ، فصاح الفتى صيحة ظننا روحه قد خرجت فلما أفاق قال : يرحمك الله فما علامة المحبين ؟ قال : إن درجة المحبين رفيعة ، فقال : صفها لي ، فقال : إن المحبين لله تعالى نظروا إلى نور جلال الله فصارت أبدانهم روحانية وعقولهم سماوية تسرح تسرح بين صفوف الملائكة بالعيان ، وتشاهد تلك الأمور باليقين فعبدوه بمبلغ استطاعتهم لا طمعاً في جنته ولا خوفاً من ناره . قال : فشهق الفتى شهقة خرجت فيها روحه فعجل الشيخ يبكي ويقبله ويقول : هذا والله مصرع الخائفين ، وهذه درجة المحبين :

يـا مالـك القلـب رقـا رفقـاً بعبـدك رفقـا قـد لـذ فيـك وجـدي فلسـت بالوجـد أشـقى
فـلا أرى للتشـكي بمـا أنـا منـك ألقـى فـإن أمـت فسـروري بـأن أمـوت وتبقـى

[وعن الحسن البصري] قال : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : أن يا داود أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى عبادي . فقال : يا رب أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى عبادك ؟ قال : ذكرهم آلائي ونعمائي فإنهم لم يعرفوا مني إلا الحسن الجميل :

يـا مـن لـه فضـل علـيّ جميـل هـل لي إليـك إذا اعتـذرت قبـول
فأنـا المقـرّ بسـوء فعلـي سـيدي وبحسـن ظـني عنـدك المقبـول

[وقيل] : إن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم الخليل عليه السلام : إنك لي خليل ، وأنا لك خليل فاحذر أن أطلع على قلبك فأجده مشتغلاً بغيري فأقطع حبك مني فإني إنما أختار لحبي من لو أحرقته بالنار لم يلتفت قلبه عني ولم يشتغل بغيري ، فإذا كان لي كذلك أسكنت محبتي في قلبه فتواترت عليه ألطافي فقربته مني ووهبت له محبتي فأي نعيم يعدل ذلك عندي وأي شرف أشرف منه عندي فوعزتي وجلالي لأشفينّ صدره من النظر إليّ وذلك أني محب لمن أحبني .

[إخواني] إذا كانت محبته سبقت للعبد بالعناية القديمة كيف لا يسلك العبد الطريق المستقيمة ؟ يا جبريل أنم فلاناً وأقم فلاناً ، فالمحب بين يدي محبوبه قائم ، ولخدمته ملازم ، وفي حبه هائم فما عليه من عتب العاذل واللائم :

يـا عـاذل القلـب في صـبابته ولائـم الصـب في تصـابيه اتـرك ملامـي وصـدّ عـن عـذلي
فالحـب معـنى ولسـت تدريـه وفي ضـميري مـن لا أبـوح بـه وفي فـؤادي مـن لا أسميـه
قـد أدهـش الطـرف في محاسـنه وحـير القلـب في معانيـه محجـب والقلـوب تشـهده
مغيـب والغـرام يديـه ووجهـه حيـث قمـت واجهـني لا شـيء يخفيـه أو يواريـه
إن قلـت يـا بغـيتي ويـا أملـي يقـول ليـك في تعاليـه هـا أنـا دان إليـك مقتـرب
فخذ من الوصـل صـرف صـافيه واغـنم زمـان الرضـا فمـا أحـد يـدري الـذي في غـد يلاقيـه

[وقال أبو حيان رحمه الله] : حضرت مجلس ذي النون رحمه الله في فلاة مصر فحسبت من حضر فكان عددهم سبعين ألفاً ، فتكلم في محبة الله تعالى وما يتعلق بالمحبين وصفاتهم ، فمات في مجلسه أحدهم عشر نفساً ، وماج الناس في الصراخ والبكاء ووقع إلى الأرض خلق كثير مغشي عليهم ولم يفيقوا ذلك النهار ، فناداه بعض مريديه : يا أبا الفيض أحرقت قلوب بذكر محبة الخالق وأورثتها الأحزان والنيران ، فلو بردت القلوب بذكر محبة المخلوقين ، فتأوه ذو النون تأوهاً شديداً وشق قميصه نصفين وقال : آه ثم أواه علقت قلوبهم واستعبرت عيونهم ، وحالفوا السهاد وخالفوا الرقاد ، فليلهم طويل ونومهم قليل ، أحزانهم لا تنفد وهمومهم لا تفقد ، أمورهم عسيرة ودموعهم غزيرة ، باكية عيونهم قريحة جفونهم ، قد عاداهم الزمان

وجفاهم الأهل والجيران ، قد أحرقت المحبة قلوبهم وصفا من الكدر مشروبهم ، لا جرم أنهم بشروا في الهنا وبلوغ المنى :

فلله قوم أخلصوا لحبيبهم ... فأوسعهم فضلاً وأتحفهم منا
هنيئاً لهم لما تملوا بحبه ... وفازوا من الرضوان بالمنزل الأسنى
وذو العرش في فردوسه يستزيدهم ... فيا حبذى المولى ويا حبذى المعنى
يقول عبادي هل رضيتم بنعمتي ... فها أنا منكم قاب قوسين أو أدنى
تملوا بوجهي وانظروا ما منحتكم ... فمن نال مني نظرة فقد استغنى

[**إخواني**] للمحبة رجال ، ما تركوا في قلوبهم لغير محبوبهم مجال ، فما في الحب عضو ولا جارحة إلا وعليه شواهد المحبة لائحة فالألسن قد شغلها أنيس ﴿ فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ : [البقرة : ١٥٢] والأسماع منصتة لاستماع كلام الحبيب بألحان ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ : [البقرة : ١٥٨] والأبصار شاخصة لانتظار ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ : [القيامة : ٢٢ـ٢٣] والأبدان قائمة بوظيفة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ : [الفاتحة : ٥] ، والقلوب مرتبطة برابطة ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ : [المائدة : ٥٤] ، والأسرار مستغرقة في مشاهدة حضرة ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ : [البروج : ٣] ، والأرواح ترتاح لأذكار ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ : [الواقعة : ٨٩] فما للعارف غفلة عن مشهوده ، ولا للعابد غفلة عن معبوده :

لما علمت بأن قلبي فارغ ... ممن سواك ملأته بهواك
وملأت كلي منك حتى لم أدع ... مني مكاناً خالياً لسواك

قال ذو النون : رأيت فتى ظاهره الجنون ، وباطنه الفنون ، فعلمت أنه بحب مولاه مفتون ، فسمعته يبكي ويقول في مناجاته : مولاي قرّبت المحبين وطردتني فما ذنبي ، وخصصتهم بالوصال منك وهجرتني فواكربي . أيقظتهم للقيام بين يديك وأنمتني فواندامي ، لذذتهم في السحر بمناجاتك وما لذذتني فواألمي ، ثم أخذ في البكاء . قال ذو النون : فحرك مني ما كان ساكناً ، وهيج من شوقي ما كان كامناً ، فقلت له : يا فتى ما هذا البكاء ؟ فقال : يا ذا النون أخبرني سواد الثوب يزول بالماء والصابون وسواد القلب بماذا يزول ؟ فقلت : والله أنا في طلب ما أنت فيه ، وما وقت منه إلا في الحيرة والتيه :

رأى سوادي فقلت ويلي ... أشد منه سواد قلبي ... طلبت منه لذاك غسلا
فقال لي ليس ذا بصعب ... كذاك قلبي به سواد ... فازددت كرباً لعظم كربي

[**إخواني**] إذا سكنت المحبة في قلوب أنارت بأنوار المحبوب فأثرت وأثمرت في القلب سبعة

أشياء لا يتم مصباح معرفة الرب إلا بها : إخلاص النية لله ، والخوف من الله ، ورجاء ثواب الله ، والصدق مع الله ، والتوكل على الله ، وحسن الظن بالله ، والشوق إلى الله ، فهذه السبعة لا يتم مصباح معرفة ربك إلا بها : كما أن المصباح لا يوقد إلا بسبعة أشياء لا بدّ منها : الزناد والحجر والحراق والكبريت والمسرجة والزيت والفتيلة فبدون هذا الأشياء لا سبيل إلى إيقاد المصباح ، فإن أردت يا هذا إيقاد مصباح قلبك لمشاهدة ربك فلا بد من زناد المجاهدة وحجر المكابدة وحراق الأشواق وكبريت المحبة ومسرجة التوكل وزيت الفكر وفتيلة الصبر ثم تعلق المصباح في سلاسل التضرّع إلى ربك فعند ذلك يتوقد نوره في قلبك ، فتشاهد جمال ربك :

كشف الحجاب وزالت الأستار ... وصفا العتاب وطابت الأسمار
وأتى النسيم مبشراً ومخبراً ... فصفا النعيم وزالت الأكدار
وروت حديثاً عن شذاك معطراً ... فصفت بلطف صفاتك الأسرار
شهدت معانيك القلوب بصفوها ... فتحيرت في حسنك الأفكار
وتولهت أهل الهوى وتحيروا ... مذ شاهدوك وكيف لا يحتاروا

[وحكي] عن محمد بن أحمد المفيد قال : سمعت الجنيد رحمه الله يقول : كنت نائماً عند سريّ رحمه الله فأيقظني وقال : يا جنيد رأيت كأنني وقفت بيدي الله عزّ وجل ، وقال لي : يا سريّ خلقت الخلق وكلهم ادّعوا محبتي فخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي العشر ، وخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار وبقي معي عشر العشر ، فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر ، فقلت للباقين : لا الدنيا أردتم ، ولا للجنة طلبتم ، ولا من البلاء هربتم فما الذي تريدون وما الذي تطلبون ؟ قالوا : أنت المراد ، لو قطعتنا في البلاء لم نحل عن المحبة والوداد فقلت لهم : إني مسلط عليكم من البلاء والأهوال ما لا تقوم بحمله الجبال أتصبرون على البلاء ؟ قالوا : بلى . إذا كنت أنت المبتلي لنا فافعل ما شئت بنا ، فهؤلاء عبادي حقاً وأحبائي صدقاً :

بما شئتموا في الهوى عذبوا ... فتعذيبكم عندنا يعذب ... ومهما أردتم بنا فافعلوا
وفينا فدونكما جربوا ... فمن كان فينا محباً لكم ... فقد فاز منكم بما يطلب

[إخواني] البلاء موكل بالمحبين قد أضنى منهم الأجساد وتمكن من القلوب لا يزالون كذلك حتى يصلوا إلى المحبوب . قال إبراهيم الخوّاص : كان عتبة الغلام من الخواص المعروفين بالإخلاص وكان يزورني في بعض الليالي وكان صائم الدهر فبات عندي ليلة فقدمت له العشاء ليفطر عليه فلم يفطر إلا على الماء ، فلما صلى العشاء الأخيرة تحزم وقام يصلي إلى وقت السحر فسمعته يقول في مناجاته : سيدي إن تعذبني فإني لك محب وإن ترحمني فإني لك محب ،

ثم بكى وشهق شهقة عظيمة وخرّ مغشياً عليه ، فلما أفاق قلت له : يا عتبة كيف كانت ليلتك ؟فصرخ صرخة ثم قال : يا إبراهيم ذكر العرض على أسرع الحاسبين ، قطع أوصال المحبين ، ثم غشي عليه ، فلما أفاق رفع رأسه وقال : يا سيدي أتراك تعذب من أحبك بالنيران ، أو تبتلي قلبه بالهجران ، فسمع هاتفاً يقول : حاشى أن يعذب من أحبه واجتباه واصطفاه :

في وصف حبك ما يغني عن العذل ... وفي حديثك ما يلهي عن الغزل
ملكت فاحكم فكل منك محتمل ... الأمر أمرك ليس الأمر من قبلي
وحق حبك ما قلبي بمنقلب ... إلى سواك ولا حبي بمرتحل
ولو سفكت دمي عمداً بلا سبب ... لكان أهنأ من الإغفاء للمقل
أنا الذي ما لقلبي عنك من عوض ... كلا ولا لولائي فيك من بدل
من خان عهدك أو ألوى على بدل ... واضيعة العمر بل يا خيبة الأمل
من لي سواك إذا أدرجت في كنفي ... ومن أنيسي إذا أفردت عن خولي
ما لي سوى حسن ظني عند منقلبي ... فلا تلمني على المنقوص من عملي
ولي شفيع إذا حان اللقاء غداً ... هو المشفع في جرمي وفي زللي
خير الورى نسباً أزكاهمو حسباً ... أصفاهمو عرباً في السهل والجبل
أقواهمو سبباً أوفاهمو أدباً ... أعلاهمو رتباً في العلم والعمل
بحقه يا إلّهي جد بمغفرة ... على عبيد غدا بالذنب في خجل
واسمح له منك يوماً بالمسير إلى ... جنابه الرحب من قبل انقضاء الأجل
يا رب بالمصطفى المختار من مضر ... اغفر لنا سائر الزلات والخطل
يا رب بالمصطفى خير الأنام ومن ... له الشفاعة أنقذنا من الوجل
يا رب شفعه فينا يوم تبعثنا ... فنحن من خوفنا في غاية الخجل
يا رب اغفر لنا كل الذنوب به ... وامنن وسامح فهذا غاية الأمل
يا رب بلغه عنا أننا أبداً ... نحبه بدليل في الأنام جلي
يا رب صلّ عليه كلما طلعت ... شمس النهار وما لاحت على جبل

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس السادس والأربعون
في وفاة النبيّ ﷺ

الحمد لله الذي حيّر ألباب أرباب العقول بالذهول عن الوصول إلى تحقيق تدقيق معرفته وأغرق سفن الأفهام في تيار بحار الاستفهام عن دوام سرمديته ، وقص أجنحة أطيار الأفكار عن المطار إلى أوكار معرفة صمديته ، وهدم أساس مقياس الحواس بفأس الإياس فلا سبيل إلى قياس تحديد صفاته وقدرته ، وأوقع أطيار الأذهان في شباك معرفة ذاته فعجزت الأفلاك والأملاك عن إدراك أحديته ، وحجب العقول عن الوصول إلى حصول سرّ فرديته ، فهو الأول الذي لا أول لأوليته ، الآخر الذي لا آخر لآخريته ، الظاهر بالدليل لأهل ودّه ومحبته ، الباطن الذي لا يكفيه الخاطر بفكرته ، السميع الذي يسمع أنين الجنين تحت غشاء الحشا وأغطيته ، البصير الذي يبصر أثر دبيب النمل على الصخر إذا أخفاه الليل بسواده وظلمته ، العليم بما يخفيه العبد في سريرته ، الجبار الذي خضع كل متجبر لعظيم هيبته ، القهار الذي قهر كل متكبر بسلطان سطوته ، تقدسه الكائنات وتمجده جميع المخلوقات ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته :

تعالى المهيمن في عزته وجلّ عن النقص في قدرته إلّه تعزز في ملكه
فكل الخلائق في قبضته تفرد في ملكه بالبقا وحذرهم من سطا نقمته
له الخلق والأمر سبحانه فكل يخافون من سطوته

فيا أيها السالك إلى المطلب الأعلى كم في الطريق من مهالك صعبة المسالك ، فإن حصلت بتوفيقه هنالك فزت بوصالك ونلت غاية آمالك وشهدت جمالاً لا يتمثل في خيالك ، وسمعت جواباً لا يخطر ببالك وشربت شراباً يرويك ويغنيك عن أهلك ومالك ، وإن أردت الوصول إليه بقياسك ومثالك تقطعت أوصالك دون وصالك وحظيت بخيبتك ونكالك ، فاقصر عن كشفك وسؤالك واكفف عن بحثك وجدالك ، واعلم أنه سبحانه بخلاف ذلك :

طريق الحب كم فيها مهالك وما فيها لباغي الوصل سالك فإن رمت النجاة سلمت حقاً
وإلا كنت يا مغرور هالك وإن وجدت حزت طريق وصل فيا بشراك إذ تمشي هنالك
مطالب وصله جلت وعزت فكم فيها لطالبها مهالك

كم سارت قفول العقول ، إلى بيداء معرفة ذاته فتاهت ولم تحصل على الوصول ، كم قصدت الألباب الدخول ، في هذا الباب وهو لا يزال مقفول ، كم بعث العقل من رسول ، فرجع

وهو بالحيرة مفصول فالعقل واقف على الباب لا يحول ، والفكر ملازم لهذا الجناب لا يزول ، والفهم حائر في إدراك الصمدية لا يفارقه الذهول ، وحير العقول فلا يعرف بالمعقول ، وأذهل الأذهان فلا يدرك بالمنقول :

تحـــيرت البصـــائر والعقـــول فمـا يـدري المحـدث مـا يقـول
تحجـب عـزة وعـلا اقتـدارا وجـلّ فـلا يصـاب لـه مثيـل

فسبحانه من إلّه كيف الكيف وتنزه عن الكيفية ، وأين الأين عن الأينية ، أول كل شيء وليس له أولية ، وآخر كل شيء وليس له آخرية ، لا يقاس بمثل ولا يوصف بجوهرية ، ولا يعرف بجسمية خلق الشر وقضاه ، وخلق الخير وارتضاه ، ورحم من أطاعه وعذب من عصاه ، ولا يسأل عن قضية . لا يحتجب عن أحبابه ، ولا يحجبهم بحجابه ، وقد تقدمت مواعيده القديمة الأزلية ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ : [الفجر ٢٧ـ٢٨] .

ألـف الوصـل ألفـت كـل قلـب لحبيـــب صـــفاته أزليـــه وببـاء البقـاء أفـنى نفوسـا
لم يـدع حبـه لهـا مـن بقيـة ثم تمـت لـه بتـاء التعـالي كل مـا شـاء مـن أمـور عليـه
قســماً صـــادقاً بيـــاء يقـــيني لـيس لي في سـواه مـا عشـت نيـه

فسبحان ذي الملك والملكوت ، والعزة والجبروت ، وهو الحي الذي لا يموت ، يعلم خفيات السرائر ، وحركات الخواطر ، واختلاج الضمائر ، أغرق العقول في معرفته ببحر زاخر ، ليس له أول ولا آخر ، سار بريد الأفكار ، فانقطع وحار في فريق معرفته فهو أبداً سائر ، جاء جاسوس الحس ليدرك بعض صفاته فناداه القدر إلى أين يا حائر ، الأبواب مردودة والطريق مسدودة ، ليس إلى إدراكه سبيل ، وليس له شبيه ولا مثيل ، بحر لا يتمكن منه غواص لاستخراج الجوهر ، وليل لا يتبين للعين فيه كوكب زاهر :

تحيرت في أمـور الوصـول إليكم وهددني التعجيز مـن كـل جانـب
عدت وما أدركت ما كنـت أبتغـي ومـا نلـت ممـا أرتجيـه مـآربي

فسبحان من كوّن الأكوان ، ودبر الزمان ، وخلق الإنسان وعلمه البيان ، وأنزل القرآن ، وقدّر الكفر والإيمان ، والطاعة والعصيان ، لا يمر عليه النسيان ، ولا يشغله شأن عن شان ، لا تغيره الدهور ، ولا تختلف عليه تصاريف الأمور ، مقدر المقدور ، ومالك يوم النشور ، له المثل الأعلى وله الأسماء الحسنى والصفات العليا ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ : [الفرقان : ٥٩] ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ : [طه : ٥] لا تبليه الأعصار ، ولا ينهيه المقدار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تدركه الأبصار ، ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ ﴾ : [الزمر : ٥] ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ

عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ : [الرعد : ٨] ذاته لا كالذوات وصفاته لا كالصفات ، رفيع الدرجات مميت الأحياء ، ومحيي الأموات ، لا تشتبه عليه اللغات ، ولا تختلف عليه الأصوات ، لا يقاس بقياس الحواس ، ولا يأخذه نوم ولا نعاس ، الأولياء في حذر من مكره ، والملائكة من خيفته لا يفترون عن ذكره ، والإنس والجن في دائرة قهره ، والجنة والنار تحت نهيه وأمره ، لا يصفه الواصفون ، ولا تكفيه الظنون ، ولا يلحقه المنون ولا تراه العيون ، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، فالخلائق في قبضة إرادته محصورون ، خلقهم وما يعملون وهو يعلم بما يفعلون ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ : [الأنبياء : ٢٣] .

عز فليس تراه العيون وجل فلا يعتريه المنون تفرد في ملكه بالبقا
وكل الورى بالفنا ذاهبون ويفعل في خلقه ما يشا بغير اعتراض وهم يُسألون

فسبحان من وعر طرائق الحقائق ، إلى معرفة ذاته فوقع السالكون في التيه ، وحير إدراك الخلائق ، فحارت الخلائق فيه ، فأوقدوا مصابيح العرفان ، بأدهان الأذهان ، واستدلوا بنور برق الإيمان ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ ﴾ : [البقرة : ٢٠] فانقلبوا إلى القلوب . فقالت : إنما نحن بيوت التنزيه ، وصاحب البيت أدرى بالذي فيه ، فتعلقوا بالصفات ، فقالت : لا نطيق نبديه ، فأشاروا إلى العقل فناداهم من سكرة تغاشيه ، وحيرة تلاشيه ، أنا مثلكم متحير فيه ؛ لست بالمدرك له فأحكيه ، ولا بالواصف له فأصفيه وأسميه ، ولا أعرف من أي جهة آتية فقد سألتم عن أمر لا أدريه ، وكشفتم عن سر ما برحت أستمليه وأستقريه ، فما وقفت منه إلا على الحيرة والتوليه ، ولكن أيها الكئيب المتحير فيه السليب في حسن معانيه ، إن أردت معرفته فاسلك طريق التوفيق به بغير تمويه فهو القريب الذي متى شئت تلاقيه ، البعد الذي لا بالمسافة توافيه ، فإن صافيته سقاك من كأس صفوة صافية ، وإن شربت بكأس محبته فالكأس هو ساقيه ، وإن أردت أن تسمع ألحان ذكره ومثانيه ، فقل بلسان التوحيد والتنزيه ، وإياك إياك والتشبيه :

تبارك الله في عليـاء عزته وجل معنى فليس الوهم يحويه
وجوده سابق لا شيء يشبهه ولا شريك له لا شك لي فيه
لا كون يحصره لا عون ينصره لا كشف يظهره لا جهر يبديه
لا دهر يخلقه لا نقص يلحقه لا نقل يسبقه لا عقل يدريه
حارت جميع الورى في كنه قدرته وليس تدرك معنى من معانيه
سبحانه وتعالى في جلالته وجل لطفاً وعز في تعاليه

فسبحان من إلّه خلق آدم بيد قدرته ، وأسجد له جميع ملائكته ، وأسكنه فسيح جنته ، ثم

حكم عليه بالموت وعلى ذريته ، وقال لنبيه ﷺ يخبره بقضيته : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ : [الأنبياء : ٣٥] فأبلغ في تسليته ، ونجى نوحاً من الطوفان ، وأغرق أهل مخالفته صيانة لأهل الإيمان ، وقضى عليه بالموت المكتوب على الإنس والجان ، وقال لنبيه ﷺ : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ : [الرحمن : ٢٦] واتخذ إبراهيم خليلاً ووفقه وسدده ، وأراه ملكوت السموات والأرض وأشهده ، وفوّق إليه سهام الموت المرصدة ، وقال لنبيه محمد ﷺ إذ أعلمه بحاله وأيده ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ : [النساء : ٧٨] واختار موسى نجياً وأسمعه كلامه وبلغه من لذيذ خطابه قصده ومرامه ، وأنقذ فيه من الموت سهامه ، وقال لنبيه محمد ﷺ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ : [آل عمران : ١٨٥] وخلق عيسى من غير أب بلا شك ولا عيّ فأبرأ الأكمه والأبرص بإذنه وأعاد الميت في قبره وهو حيّ ، وقال لنبيه ﷺ إخباراً عن عيسى عليه السلام : ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ : [آل عمران : ٥٥] واصطفى محمداً ﷺ النبي العربي الأمين المأمون ، صاحب الجاه العريض والعرض المصون ، ومع هذا القرب والمنزلة التي لا يصل إليها الواصلون ، نعى إليه نفسه الكريمة ، وأنذره بريب المنون ، وسلاه بمن مات قبله من الأنبياء والمرسلين ، فقال في كتابه المكنون : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ : [الزمر : ٣٠]

لما نعى المختار خير الورى ... من بعده كل مصاب يهون ... ما زلت أبكي بعده حسرة
حتى جرت من جفون عيني عيون ... وقلت لما أن قضى نحبه ... يا ليتني لاقيت ريب المنون
لا تطمعي من بعده بالبقا ... يا نفس هذا أبداً لا يكون ... أبعد موت المصطفى خالد
أم في البقا تطمع أم في السكون ... صلى عليه الله ما غرّدت ... حمائم الأيك وأبدت شجون

[روي عن ابن عباس رضي الله عنهما] قال : ولد نبيكم محمد ﷺ يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين ، وتوفي يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول . وكانت مدة مرضه اثني عشر يوماً . وكان مرضه بالصداع . وقال ابن أبي يزيد رضي الله عنه : ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول عام الفيل ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين ، وتوفي يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار لإحدى عشرة سنة مضت من الهجرة . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أنزل على النبي ﷺ سورة : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ : [النصر : ١] إلى آخرها قال رسول الله ﷺ : « نعيت إليّ نفسي » فأقبل إلى منزل عائشة رضي الله عنها والحمى عليه . قال بلال : فلما أصبحت أتيت إلى حجرة رسول الله ﷺ فناديت :

السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة الصلاة جامعة ، فقال النبي ﷺ لفاطمة رضي الله عنها : مري بلالاً يقرىء أبا بكر السلام ويقول له يصلي بالناس ، قال بلال : فرجعت باكياً وأنا أطوف في أزقة المدينة وأنادي : واسيداه وانبياه واسوء منقلباه ليت بلالاً لم تلده أمه . قال : ثم أتيت المسجد فوجدته غاصاً بالناس فلقيت أبا بكر فبلغته السلام والرسالة ، ثم ناديت : الصلاة رحمكم الله فأقمت الصلاة فلما قلت : الله أكبر الله أكبر ، قال المسلمون : كبرناه تكبيراً وعظمناه تعظيماً . فلما قلت : أشهد أن لا إلّه إلا الله ، قال المسلمون : شهدنا بها مع كل شاهد ، فلما قلت : أشهد أن محمداً رسول الله غلبني البكاء فبكيت فبكى وبكى الناس . فتقدم أبو بكر الصديق ﷺ فأم بالناس فلما قرأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ : [الفاتحة : ٢ـ١] ونظر إلى موقع أقدام رسول الله ﷺ خنقته العبرة فبكى وبكى الناس فلما سمع النبيّ ﷺ ضجة الناس ، قال لفاطمة : ما هذه الضجة التي في المسجد ؟ قالت : إن المسلمين فقدوك وقت الصلاة فرفع النبيّ ﷺ رأسه وقال : اللهم مر ملك الحمى أن يخفف على نبيك حتى أخرج وأصلي بالناس وأودع أصحابي قبل فراق الدنيا . قال : فوجد النبي ﷺ خفة في بدنه فتوضأ وخرج متوكئاً على الفضل بن العباس وأسامة بن زيد وعليّ رضي الله عنهم . فلما رأى المسلمون أنوار النبي ﷺ تخترق في المسجد وأحسوا بمجيئه جعلوا ينفرجون صفاً صفاً والنبيّ ﷺ يخترق الصفوف حتى وصل إلى محرابه فوقف بإزاء أبي بكر الصديق فصلى بالناس ، فلما فرغ رقى المنبر يخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم أقبل على الناس بوجهه الكريم كالمودّع لهم . فقال : أيها الناس ألم أبلغكم الرسالة وأؤدّ لكم الأمانة والنصيحة ؟ فقالوا : بلى يا رسول الله قد بلغت الرسالة وأدّيت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وعبدت الله حتى أتاك اليقين فجزاك الله عنا ما جزى به نبياً عن أمته ، ثم نزل فودع أصحابه وصافحهم وهم يبكون ، ثم أقبل إلى منزل عائشة ، ولم يزل متمرضاً حتى أتى إليه ملك الموت في زي رجل أعرابي فوقف بباب حجرة رسول الله ﷺ ثم نادى : السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة أتأذنون لي في الدخول على الرسول ؟ فقالت فاطمة يا أعرابي إن نبي الله بنفسه عنك مشغول ، ثم نادى الثانية فرمق النبي ﷺ الباب فنظر إلى ملك الموت فقال لفاطمة : أتدرين من يخاطبك ؟ قالت : يا أبت رجل أعرابي ، فقال : هذا ملك الموت هذا هاذم اللذات ائذني له فدخل فسلم ، وقال : يا رسول الله إن الله عز وجل أرسلني وأمرني أن لا أقبضك حتى تأمرني فماذا أمرك ؟ فقال : اكفف حتى يأتيني جبريل فهذه ساعته . قالت عائشة رضي الله عنها : فاستقبلنا بأمر لم يكن عندنا له جواب وكأنا ضربنا بصاخة ولم يتكلم أحد من البيت إعظاماً لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا . قالت : فجاء

جبريل فقال : إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول : كيف تجدك ، وهو أعلم بالذي تجد منك ، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً . فقال : يا جبريل إن ملك الموت استأذن عليّ ، وأخبره الخبر . فقال : جبريل : يا محمد إن ربك إليك مشتاق ، أما أعلمك ملك الموت بالذي يريد منك ؟ والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط إلا أن الله متم شرفك ، فقال النبي ﷺ : لا تبرح إذاً حتى يجيء ، وأذن للنساء ، ثم قال : ادني مني يا فاطمة فأكبت عليه فناجاها طويلاً رفعت رأسها وعيناها تدمعان وما تطيق الكلام ، ثم قال : ادني مني رأسك فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك وما تطيق الكلام فكان الذي رأينا منها عجباً فسألناها بعد ذلك ، فقالت : قال لي : إني ميت اليوم فبكيت ، ثم قال دعوت الله تعالى أن يلحقك بي أول أهلي وأن يجعلك معي فأضحكني . قالت : ثم جاء ملك الموت فسلم واستأذن فأذن له ، فقال الملك : ما تأمرني به يا محمد . قال : ألحقني بربي الآن . قال : بلى من يومك هذا ، ولكن ساعتك أمامك ، ثم خرج وخرج جبريل . فقال : يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض قد طُوي الوحْيُ ، وطويت الدنيا ، وما كانت لي في الدنيا حاجة غيرك ولا لي فيها حاجة إلا مودتك . قالت عائشة : فوالذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يجيب في ذلك في بكلمة ، ولا يعبث إلى أحد من رجاله لعظم ما سمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا . قالت : فقمت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين يدي ، وأمسك بصدره فجعل يغمى عليه حتى يغلب ، وجبهته ترشح رشحاً ما رأيته من إنسان قط فجعلت أرسل ذلك العرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له إذا أفاق : بأبي وأمي ونفسي وأهلي ومالي ما تلقيه جبهتك من الرشح ، فقال : يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ، ونفس الكافر تخرج من شدقه كنفس الحمار فعند ذلك ارتعنا وبعثنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخي بعثه إليّ أبي فمات رسول الله ﷺ قبل أن يجيء أحد ، وإنما صدّهم الله عنه لأنه ولي أمره جبريل وميكائيل وإسرافيل فكان النبي ﷺ إذا أغمي عليه قال : الرفيق الأعلى . قالت عائشة رضي الله عنها : وكان قد دخل عليّ أخي عبد الرحمن وبيده سواك فجعل النبيّ ﷺ ينظر إليه فعرفت أنه يعجبه ذلك ، فقلت : آخذه لك ؟ فأومأ إليّ برأسه أن نعم فناوله إياه فأدخله في فيه فاشتدّ عليه فقلت : ألينه لك ؟ فأومأ برأسه أن نعم فلينته له ، وكان بين يدي ركوة ماء فجعل يدخل يده فيها ، ويقول : لا إلّه إلا الله إن للموت لسكرات ، ثم نصبت يده وهو يقول : اللهم الرفيق الأعلى ، قالت : حتى قضى نحبه ﷺ . قالت عائشة رضي الله عنها : مات رسول الله ﷺ في بيتي ، وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت ، فكان أول من أعلم الناس بموته أبو بكر الصديق ﷺ ، وهو أول من دخل عليه ،

وهو مسجى ببردة يمنية فكشف عن وجهه وقبله ، وقال وهو يبكي : بأبي وأمي أنت يا رسول الله طيب حياً ، وطيب ميتاً ، أما الموتة التي كتبها الله عليك فقدمتها فجزاك الله عن نصيحتك للإسلام خيراً ، ثم خرج إلى الناس فأخبرهم بوفاته . قال ابن مسعود ﷺ : إن النبيّ ﷺ قال لجبريل عليه السلام عند موته : من لأمتي من بعدي ؟ فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته وبشره أنه أسرع الناس خروجاً من الأرض إذا بعثوا ، وسيدهم إذا جمعوا ، وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته . فقال : الآن قرّت عيني ، وطاب قلبي . ودخل عليه أبو بكر الصديق ﷺ ، فقال له النبي : ﷺ : سل يا أبا بكر ، فقال أبو بكر : يا رسول الله دنا الأجل ؟ قال : قد دنا وتدلى ، فقال : ليهنك يا نبي الله ما أعد الله لك فليت شعري أين منقلبنا ؟ فقال : إلى الله تعالى ، وإلى سدرة المنتهى ، وإلى جنة المأوى والعرش الأعلى والرفيق الأعلى والعيش الأهنى ، والحدّ الأوفى . فقال : يا نبي الله من يلي غسلك ؟ قال : رجال من أهل بيتي الأدنى فالأدنى ، قال : ففيم نكفنك ؟ قال : في ثيابي هذه ، وفي حلة يمنية ، وفي بياض مصر . قال : كيف الصلاة عليك ؟ ثم بكى وبكينا ، ثم قال : مهلاً غفر الله لكم ، وجزاكم الله عن نبيكم خيراً ، إذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ، ثم اخرجوا عني ساعة فأول من يصلي عليّ الله عزّ وجل ، وهو قوله ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ : [الأحزاب : ٤٣] ثم يأذن للملائكة في الصلاة عليّ . فأول من يدخل عليّ من خلق الله تعالى ويصلي عليّ جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم عزرائيل مع جنود كثيرة من الملائكة ، ثم أنتم فادخلوا عليّ أفواجاً أفواجاً وزمراً زمراً وسلموا تسليماً ، ولا تؤذونني بصيحة ولا ضجة ولا رنة ، وليبدأ منكم بالصلاة الإمام وأهل بيتي الأدنى فالأدنى ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان . قال : فمن يدخل القبر ؟ قال : أهل بيتي الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم ثم قوموا فأدّوا عني السلام إلى من بعدي من أمتي . ولما توفي رسول الله ﷺ اجتمع الناس في المسجد وضجوا بالبكاء والنحيب ، وأظلمت الدنيا ونادى بلال : وانبياه ، ونادت فاطمة : وأبتاه ، ونادى الحسن والحسين : واجداه ، ونادى كل المسلمين : واحزناه ، وأول من بكاه ورثاه أبو بكر الصديق ﷺ ، ولسان حاله يقول :

كيف تلتذ جفوني بالمنام ... بعد شرب المصطفى كأس الحمام

أم لقلبي راحة من بعده ... وجفوني بالبكا سحت دوام

إن يكن غاب عن الدنيا ففي ... جنة الخلد له أعلى مقام

لكـــن المقـــدور حـــتم لازم مالنـا مـن بأسـه مـن اعتصـام
لـيس في لـدنيا بكـاء لامـرىء بعد مـوت المصـطفى خـير الأنـام
أحمـد الهـادي الشـفيع المرتضـى في البرايـا سـيد الرسـل الكـرام
فعليـــه الله صـــلى كلمـــا بكـت السـحب بأجفـان الغمـام

وبكاه عمر الخطاب ورثاه ، وقال بلسان حاله وجواه :

لـيس البكـاء إن أطيـل بمقنعـي الخطوب أعظم قيمـة مـن أدمعـي
يـا للرجـال بحـادث لم يحتسـب ولنـازل مـا كـان بـالمتوقع
تـالله مـا جـار الزمـان ولا اعتـدى بأشـدّ مـن هـذا المصـاب وأوجـع
خطـب يـبرح بـالخطوب وفـاح مـن لم يكـن جزعـا لـه لم يجـزع
فقد الرسـول فأظلمـت كـل الـدنا والحـزن عـمّ لكـل قلـب موجـع
مـازال بـالمعروف فينـا آمـراً يهـدي الأنـام بنـوره المتشعشـع
صـلى عليـه الله جـلّ جلالـه مـا لاح نـور في الـبروق اللمـع

ورثاه عثمان بن عفان ﷺ ، وزاد في البكاء وأطال وناداه بلسان حاله وقال :

ويحك يا نفس البدار البدار مـا هـذه الـدنيا لحـيّ بـدار كم كـدرت صفواً وكـم ألبسـت
من تـاه عـزّاً ثـوب ذلّ وعـار أيطمـئنّ المـرء في مـنزل يرى كؤوس الموت فيه تـدار
قـد نفـد العمـر وقـلّ البقـا إلى متى يـا نفس ذا الاغتـرار ما بعد مـوت المصطفى خالـد
ولـيس في الـدنيا لحـي قـرار صـلى عليـه الله مـا أشـرقت كواكـب الصبح ونـاح الهـزار

ورثاه عليّ بن أبي طالب ﷺ وبكى بالدمع الهمول ، ونادى بلسان حاله يقول :

لو جرى الـدمع علـى قـدر المصـاب شـابهت أجفاننـا سـح السـحاب
ولـو أن الـدمع يشـفي مـن بكـا لم نـزل بـين رحـاب الانتحـاب
يا صروف الـدهر قـد كـان الـذي كنت أخشى مـن عواديـك الصعاب
لم أزل أحسـب مـا أخلـده فـأتى الـدهر بمـا لا في حسـاب
مـات خـير الخلـق مـن قـد خصـه ربه بالصـحب مـن خـير صـحاب
كـل حـي ذائـق كـأس الفنـا هكـذا المسـطور في أمّ الكتـاب
أيهـا النـاس لكـم بالمصـطفى أسـوة فـالموت يـدني الـذهاب
فثقـوا بـالله وارضـوا وخـذوا مـا قضـى الله بصـبر واحتسـاب
واعلمـوا أن الـنبي المصـطفى ذخرنـا الشـافع في يـوم المـآب
فعليـــه الله صـــلى دائمـــاً كلمـا أمطـر قطـر مـن السـحاب

[**إخواني**] كيف يطمع بالبقاء في هذه الدار ، وقد فقد النبي المختار ، فالأحشاء عليه محترقة والأجفان بالدمع غرقة ، والصبر زائل والدمع سائل ، مصابه هون جميع المصائب ، وفقده نغص عيش الحبائب ، وفض عقد الدموع وشب النار بين الضلوع ، وأذاب الدموع الجامدة وأثار الهموم الخامدة ، فيا أيها الحزين أتطمع في البقاء بعد سيد المرسلين ؟ أمالك عبرة فيمن قرضتهم الشهور والدهور ، في الماضي من السنين ، أما لك فكرة فيمن صرع قبلك من الأنام ، من شيخ وكهل وشاب وطفل وجنين ، أما اعتبرت بمن قبرت من صديق وشقيق ، وخليل وقرين ، إلى متى تلتفت إلى العلائق ، كأنك ما أنت من الموت على يقين أغرّتك المهلة أم جاد الزمان لك بيقين بالله عليك اقبل نصحي ، قبل أن يعرق منك الجبين ، ويشتدّ نزعك والأنين ، يبكي عليك بماء الدمع المعين ، وتحصل في قبر مظلم لا يظهر فيه النور ولا يبين ، ويبقى فيه كل امرىء بما كسب رهين أما سمعت آيات الله المبينة : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ : [الأحزاب : ٢١] ، أما أنذرك ما جاء في القرآن : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ : [الرحمن : ٢٦] ، أما وعظك الدهر ، وأسمعك الصوت : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ : [آل عمران : ١٨٥] فإذا كان قد مات صاحب المقام المحمود ، والحوض المردود واللواء المعقود ، ومن له الشفاعة في اليوم الموعود فكيف بك وكيف حالك أيها المطرود ، المتخلف المذود الذي كل صحائفه سود ، وعمله عليه مردود ، يا من يغتر بدهر لا يدوم ، يا مصرّاً على المظالم والظلم والله أنت شؤم ، يا من يروع الناس بظلمه وعند الله تجتمع الخصوم .

[**إخواني**] شوقتم فما رغبتم ، وخوفتم فما رهبتم ، وأيقظكم الموت بمن أخذ قلبكم ، فما انتبهتم ووعظكم القرآن فما انزجرتم ولا اتعظتم ، كأنكم بمنادي الرحيل يناديكم في ناديكم ، انتبهوا يا نيام فقد طلبتم ، أما كان لكم في موت المصطفى عبرة ، أما أجرى لكم عظيم مصابه عبرة ، أما أيقظكم فقده من هذه السكرة ، أما جالت لكم في قرب آجالكم فكرة ، أما اعتبرتم بمن مضى قلبكم من السادات ، أما تحسرتم على من دفنتم من الآباء والأمهات ، والبنين والبنات ؟ كيف تلتذون باللذات وقد قال صاحب المعجزات : « إن للموت لسكرات » أما تمرّ حلو عيشكم والحياة ، حين قال عند الموت واكرباه ، أما أبكاكم توجع فاطمة البتول ، حين قالت لأبيها الرسول ، واكربي لكربك يا أبتاه ؟ فأين أرباب العقول ، أين هو بما يعنيه مشغول ، أين من اغترّ بالبقاء في هذه الدار الفانية ، وقد فقد الرسول :

أسفي على فقد الرسول طويل ... أسف مدى الأيام ليس يزول
رزء تكاد الأرض منه والسما ... هذي تميد له وتلك تميل

غمر القلوب بحزنه وبوجده فلكل قلب لوعة وغليل
وبكل ناد نادب متحسر وبكل ناحية عليه عويل
بأبي وأمي من ثوى في تربة والحزن في قلبي عليه يجول
والأرض بدّل صفوها بتكدر وجرت بحار بالبكا وسيول
والجو أظلم بعد موت المصطفى والسحب أدمعها عليه همول
أسفاً على من جاءنا بهداية وعليه حقاً أنزل التنزيل
وله الإلّه أني بتأييد له وعليه منه شاهد ودليل
يا نفس لا بالموت تعتبري ولا تصغي لقول الدهر حين يقول
يا نفس بعد المصطفى أفتطمعي في الخلد كلا ما إليه سبيل
يا نفس كم تعصي إلّهك جهرة والقلب مني بالذنوب عليل
يا نفس توبي من ذنوبك إنه من يعص رب العرش فهو ذليل
يا نفس كم تعصي وربك ناظر ويرى فعالك والدجى مسدول
يا نفس قد أوقعت في شرك الردى حقاً ومالك للخلاص وصول
يا نفس لا ترجي البقاء فإنه سيف المنايا في الورى مسلول
كيف الطريق إلى النجاة وإنني بقيود ذنبي دائماً مغلول

ما حيلتي إلا البكاء وقد عدا حزني على قبح الذنوب يطول من بعد موت المصطفى هل لامرىء
في الدهر يوماً للبقاء سبيل وهو النبيّ المصطفى والمجتبى ونبي حق للورى ورسول

صلى عليه الله جلّ جلاله ما حنّ مشتاق وسار دليل

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس السابع والأربعين

في مناقب الصالحين رضي الله عنهم أجمعين ،

وفيه قصة أبي يزيد البسطامي

الحمد لله الذي اختار لخدمته من اصطفاه من عباده ، وجذب إلى جنابه من أحبّ فأسرع إليه في انجذابه وانقياده ، حرك سواكن همم المريد فكان ذلك سبباً لحصول مراده ، وأخذ منه

وسلبه عنه وقربه بعد إبعاده ، ونادمه في الأسحار ، وأطلعه على الأسرار ، وما نال ذلك بحرصه ولا اجتهاده وأوصله إلى ما يوصل إليه وسلك به سبيل رشاده ، وملأ قلبه بحبه ووده لما رآه حافظاً لعهده ووداده ، وتجلى عليه بأفضاله وأنعامه ، والغافل مشغول بطيب منامه ورقاده ، وقال له : يا عبدي ها أنا متجلّ عليك وناظر إليك ، ومن حصلت له فقد ظفر بقصده وإسعاده :

ما لجفني ورقاده هو راض بسهاده أنا صب قد تجافى فجفا طيب رقاده
يا خليّ القلب دع من ذاب من طول بعاده أنت ما تدري بوجد وغرام في فؤاده
إن ترى هذا ضلالاً إنه عين رشاده

لو علم الغافل ما فاته لأكثر من نوحه وتعداده ، ولو سمع الحبيب وهو يخاطب أحبابه لم تخرج تلك الحسرة من فؤاده ، ولو شاهد جمال الحبيب لاعتزل عن العالم بانفراده ، سبقت السابقة وقضي الأمر ، والله يختص برحمته من يشاء من عباده :

قف بباب الحبيب ليلاً وناده وتشكى من هجره وبعاده وعلى الباب عفّر الخد ذلاً
ولتكن حافظاً قديم وداده ثم قل طالت القطيعة والهجـ ـر وجفني لم يكتحل برقاده
فالحبيب الذي ترجيه أضحى جوده فائضاً على قصاده

[روى أبو هريرة ﷺ] عن النبيّ ﷺ أنه قال : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده » :

فهم خواص الله أين تيمموا والذاكرون الله في الآصال القانتون المخلصون لربهم
الناطقون بأصدق الأقوال لم تخل أرض منهمو قد حكموا ذات اليمين بها وذات الشمال

[وروى رافع بن عبد الله] قال : قال لي هشام بن يحيى الكناني : ألا أحدثك حديثاً رأيته بعيني وشهدته بنفسي ونفعني الله به فعسى أن ينفعك ؟ قلت : حدثني يا أبا الوليد ، قال : غزونا أرض الروم في سنة ثمان وثمانين ، وكان معنا رجل يقال له سعيد بن الحرث ذو حظ من العبادة يصوم النهار ويقوم الليل فإن سرنا درس القرآن . وإن أقمنا ذكر الله تعالى فجاءت ليلة خفنا فيها فخرجت أنا وإياس نحرس ، ونحن محاصرون عند حصن من الحصون استصعب علينا أمره فرأيت من سعيد من العبادة في تلك الليلة . وصبره على النصب ما تعجبت منه . فلما طلع الفجر قلت له : رحمك الله أن لنفسك عليك حقاً فلو أرحتها فبكى وقال : يا أخي إنما هي أنفاس تعد ، وعمر يفنى وأيام تنقضي وأنا رجل أرتقب الموت ، وأنتظر خروج نفسي ، قال : فأبكاني ذلك ، فقالت له : أقسمت عليم بالله إلا ما دخلت الخباء واسترحت ، فدخل فنام وأنا جالس ظاهر الخباء فسمعت كلاماً في الخباء ، فقلت ما فيه أحد سواه فتقدمت قليلاً

فإذا به يضحك في نومه ويتكلم فحفظت من كلامه وهو يقول : ما أحب أن أرجع ، ثم مدّ يده اليمنى كأنه يتلمس شيئاً ، ثم ردها رداً رفيقاً وهو يضحك ، ثم وثب من نومه وهو ينتفض فاحتضنته إلى صدري ملياً ، وهو يلتفت يميناً وشمالاً حتى سكن وعاد إليه فهمه وجعل يهلل ويكبر . فقلت : ما الخبر ؟ فقال : خير ، قلت : حدثني فقد سمعتك تقول ما أحب أن أرجع ورأيتك مددت يدك ، ثم رددتها رداً خفيفاً ، فقال : لا أخبرك فأقسمت عليه ، قال : أو تكتم عني ما حييت ؟ قلت : بلى ، قال : رأيت كأن القيامة قد قامت وخرج الخلق من قبورهم شاخصين منتظرين أمر ربهم فبينما أنا كذلك إذ أتاني رجلان لم أر أحسن منهما وجهاً فسلما عليّ فرددت عليهما السلام ، فقالا لي : يا سعيد أبشر فقد غفر ذنبك ، وشكر سعيك ، وقبل عملك واستجيب دعاؤك ، وعجلت لك البشرى فانطلق معنا حتى نريك ما أعد الله لك من النعيم . قال : فانطلقت معهما حتى أخرجاني عن جملة الموقف ، وإذا بخيل لا تشبه خيل الدنيا إنما هي كالبرق الخاطف أو كهبوب الريح فركبنا وسرنا فانتهينا إلى قصر شاهق ما يبلغ الطرف منتهاه كأنه صيغ من فضة وله نور يتلألأ فلما وصلنا إليه فتح بابه من قبل أن نستفتح فدخلنا فرأينا شيئاً لا يبلغه وصف واصف ولا يخطر على قلب بشر وفيه من الحور والوصائف والولدان بعدد النجوم ، فلما رأونا أخذوا في ألوان من القول الحسن بأنغام مختلفة يقولون هذا وليّ الله قد جاء فمرحباً وأهلاً ، فسرنا حتى انتهينا إلى مجالس ذات أسرّة من ذهب مكللة بالجواهر محفوفة بكراسي من ذهب وعلى كل سرير منها جارية لا يستطيع أحد من خلق الله تعالى أن يصفها ، وفي وسطهن واحدة عالية عليهن في طولها وكمالها وجمالها . فقال الرجلان : هذا منزلك وهؤلاء أهلك وهنا مقيلك ، ثم انصرفا عني فوثب الجواري إليّ بالترحيب والاستبشار كما يكون من أهل الغائب عند قدومه عليهنّ ، ثم حملوني حتى أجلسوني على السرير الأوسط إلى جانب الجارية وقلن : هذه زوجتك ولك أخرى مثلها ، وقد طال انتظارك لك فكلمتها وكلمتني فقلت : أين أنا ؟ فقالت : في جنة المأوى فقلت : من أنت ؟ قالت : أنا زوجتك الخالدة ، قلت : فأين الأخرى : قالت : في قصرك الآخر فقلت : أقيم اليوم عندك وأتحول في غد إلى الأخرى ، ثم مددت يدي إليها فردتها رداً رفيقاً ، وقالت : أما اليوم فأنت راجع إلى الدنيا وستقيم ثلاثاً ، فقلت : ما أحب أن أرجع ، فقالت : لابدّ من ذلك وستفطر عندنا بعد الثلاث ، ثم نهضت من مجلسها فنهضت لوداعها فاستيقظت ، قال هشام : فبلغني البكاء ، وقلت : هنيئاً لك يا سعيد جدد الله شكراً فقد كشف لك عن ثواب عملك ، فقال : هل رأى أحد غيرك ما رأيت ؟ قلت : لا ، فقال : بالله عليك أكتم عني ما دمت في الحياة . ثم قام فتطهر ومس الطيب وأخذ سلاحه وسار إلى موضع القتال وهو صائم فقاتل إلى الليل ،

ثم انصرف فتحدّث الناس بقتاله وقالوا : ما رأيناه فعل مثل اليوم لقد كان يطرح نفسه تحت سهام العدو وحجارتهم وكل ذلك ينبو عنه ، فقلت في نفسي : لو يعلمون شأنه لتنافسوا في مثل عمله ، ثم مكث قائماً إلى آخر الليل ثم أصبح صائماً فقاتل أشدّ من اليوم الأول ، ثم مكث قائماً إلى آخر الليل ، ثم أصبح صائماً فقاتل أبلغ من كل يوم . قال أبو الوليد : فانطلقت معه لأنظر ماذا يكون منه ، فلم يزل يلقي نفسه في المهالك غالب النهار ولا يصل إليه شيء حتى إذا دنا غروب الشمس جاءه سهم في نحره فخر صريعاً وأنا أنظر إليه فضجت الناس وبادروا إليه وأخذوه وجاءوا به يحملونه فلما رأيته قلت له : هنيئاً لك يا سعيد فيما تفطر عليه الليلة يا ليتني كنت معك . قال : فعض على شفته السفلى وهو يضحك ، ثم قال : الحمد لله الذي صدقنا وعده ثم مات . قال هشام : فصحت : يا عباد الله ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ : [الصافات : ٦١] واسمعوا ما أخبركم عن أخيكم هذا فأقبل الناس فحدثتهم بالحديث على وجهه وما كان منه . فما رأيت باكياً كالساعة ، ثم كبروا تكبيرة اضطرب لها العسكر وشاع الحديث ، وبلغ الخبر إلى مسلمة فجاء وقد وضعناه لنصلي عليه ، فقلت : صل عليه أيها الأمير فقال : بل يصلي عليه الذي عرف من أمره ما عرف . قال : فصلينا عليه ودفناه في موضعه وبات الناس يتحدثون به . فلما طلع الصبح تذاكرنا حديثه فصاحوا صيحة واحدة وحملوا على العدو ففتح الله الحصن في ذلك النهار ببركته رحمه الله تعالى :

بالروح جد في هواهم كرماً ... وادخل حماهم تجد حمى حرما
واخلع عذار الوقار مطرحاً ... للهم واحذر بأن ترى سئما
وغب عن الكون إن أردت بأن ... تحظى فهذا به الهوى رسما
واشرب بكأس الغرام إن ترد السكر ... وتبقى من جملة الندما
ولا تبالي من العذول إذا ... قال بجهل هذا الغرام لما
وكن محباً يرى الوجود إذا ... شاهد محبوب قلبه عدما
يرضى بما يرتضي الحبيب له ... في حكمه حيث صح أو سقما
يستعذب الموت حين بان له ... ما قد رأه في حبه كرما

[وعن أبي يعقوب الطبري] قال : خرجت في سفر أريد الشام فوقعت في التيه أياماً حتى أشرفت على الهلاك ، فبينما أنا كذلك إذ رأيت راهبين سائرين كأنهما قد خرجا من مكان يريدان ديراً لهما قريباً فملت إليهم وقلت لهما : أين تريدان ؟ قالا : لا ندري ، قلت : فمن أين أقبلتما ؟ قالا : لا ندري قلت : أو تدريان أين أنتما ؟ قالا : نعم نحن في ملكه وبين يديه فقلت في نفسي : راهبان يتحققان التوكل دونك فقلت لهما : أتأذنان لي في الصحبة قالا : ذاك

إليك فسرنا . فلما أمسينا قاما إلى صلاتهما وقمت إلى صلاة المغرب فتيممت وصليت فنظرا إليّ وقد تيممت وصليت فتعجبا من ذلك . فلما فرغا من صلاتهما بحث أحدهما في الأرض فانفجرت عين ماء وإلى جانبها طعام موضوع فتعجبت من ذلك . فقالا لي : ادن وكل واشرب فأكلنا وشربنا وتوضأت للصلاة ، ثم غار الماء وقاما إلى صلاتهما وأنا أصلي وحدي حتى أصبحنا وصليت الفجر ثم قاما وسارا إلى الليل وأنا معهما . فلما أمسينا تقدم أحدهما فصلى برفيقه إلى ناحية ديرهما ، ثم دعا بدعوات وبحث في الأرض فظهر الماء وحضر الطعام فقالا : ادن وكل فدنوت فأكلنا وشربنا وتوضأت للصلاة ، ثم غار الماء . فلما كانت الليلة الثالثة قالا لي : يا مسلم الليلة نوبتك . قال محمد بن يعقوب : فاستحييت من قولهما وداخلني هم شديد وأمر غريب فقلت في نفسي : اللهم إن ذنوبي لم تدع لي عندك جاهاً ولكني أسألك بجاه محمد عندك ألا تفضحني عندهما ولا تشمتهما بي ولا بدين نبيك محمد ﷺ قال : فإذا بعين ماء قد انفجرت وطعام كثير فأكلنا وشربنا ولم نزل على تلك الحالة حتى بلغت النوبة الثالثة فلما ظهر الماء والطعام غلبني البكاء فلم أملك رده وأصابهما مثلما أصابني وارتفعت أصواتنا بالبكاء فلما أفقت قالا : ما يبكيك ؟ فقلت : أنا رجل مسرف على نفسي ، وليس لي عند الله من الجاه والمنزلة ما يبلغ هذه الكرامة ، قالا : فكيف ظهر لك هذا ؟ قلت : توسلت إليه بجاه محمد ﷺ وقلت : رب أنا مسرف على نفسي وهذان عدوان لنبيك محمد ﷺ فلا تشمتهما بدينه فظهر ما رأيتما فكانت الكرامة لمحمد ﷺ لا لي . فقالا : والله نحن كذلك لما رأيناك عجبنا من حالك . فلما جاء وقت الوضوء والأكل فكنا ندعو بدعواتك وقلنا : اللهم إن كان دين هذا حقاً ونبيه حقاً فبحرمة نبيه عندك أظهر لنا ماء وأحضر لنا طعاماً فحضر ما رأيته وكل ذلك ببركة نبيك ، وقد عرفنا أن دينه الحق ، وهو عند الله عظيم فامدد يدك فإنا نشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمد رسول الله . قال : فأسلمنا وخرجنا جميعاً إلى مكة فأقما بها مدة وخرجنا إلى الشام فتفرقنا ، فوالله ما ذكرتهما إلا وهانت عليّ الدنيا وصغرت في عيني :

لما رأيتك حاضرا ... في القلب زاد بي الخمار ... وبقيت فيك محيرا
والقلب ليس له قرار ... فامزج كؤوساً بالرضا ... جهراً فما عنها اصطبار
دارت على أحبابه ... فإليهم أبداً يشار ... لطفت فلما ذاقها الأحبا
نحو الحب طاروا ... بذلوا إليه نفوسهم ... وعلى نفوس القوم غاروا
إليه في بحر الهوى ... ركبوا وبالأرواح ساروا ... طلبوه حقاً بالقلوب
وعندما نظروه حاروا ... هاموا به حتى لقد ... أنست بقربهم الديار

ورأوا إشارات الهدى ... لاحت لديهم فاستناروا

[**إخواني**] هذان كانا من جملة الرهبان ، فلاح لهما قدر خرم الإبرة من الإيمان ، فرأيا الطريق وسلكا منهج التصديق ، وأنت يا مسكين عمرك قد مضى في العصيان ، وزمانك قد ذهب في الخسران ، وأنت في بحر الغفلة غريق ، وقد ذهبت نسمات القبول أنت سكران بخمر المعاصي لا تفيق ، فبادر إلينا بالإخلاص والتصديق ، فقد فتحنا لك الطريق ، وهديناك إلى التوفيق .

[كان وكان]

يا من زمانه يذهب ... في كل ما لا ينفعه ... إلى متى ذا التواني ... والهجر والتعويق
انهض فهيىء زادك ... قبل أن تسير القافلة ... وانهض فحصل لنفسك ... على الطريق رفيق
وإن منعت فنادي ... يا واصلين بحقكم ... عطفاً على من أضحى ... من الذنوب غريق
يا راحلين بقلبي ... ونازلين بمهجتي ... حملتموني بضعفي ... في الحب ما لا أطيق
وحقكم لست أنسى ... ما عشت عقد ودكم ... وعندكم ميثاق ... مدى الزمان وثيق

[وقال أبو يزيد البسطامي رحمة الله عليه] : كنت يوماً في بعض سياحتي متلذذاً بخلوتي وراحتي مستغرقاً بفكري مستأنساً بذكري إذ نوديت في سري : يا أبا يزيد امض إلى دير سمعان واحضر مع الرهبان في يوم عيدهم والقربان ، فلنا في ذلك نبأ وشان . قال : فاستعذت بالله من هذا الخاطر ، وقلت : لست أخاطر ، فلما كان الليل أتاني الهاتف في المنام ، وأعاد عليّ ذلك الكلام فانتبهت وأنا أرجف وأرعد وعندي من هذا الكلام ما يقيم المقعد فنوديت في سري : لا بأس عليك أنت عندنا من الأولياء الأخيار ، ومكتوب في ديوان الأبرار ، ولكن البس زيّ الرهبان واشدد من أجلنا الزنار وما عليك في ذلك من جناح ولا إنكار . قال أبو يزيد : فقمت من باكر وبادرت إلى امتثال الأوامر ، ولبست زيّ الرهبان وحضرت معهم في دير سمعان ، فلما حضر كبيرهم واجتمعوا وأنصتوا إليه ليسمعوا أرتج عليه المقام فلم ينطق الكلام كأن في فمه لجام . فقال له القسيسون والرهبان : ما الذي يمنعك من الكلام أيها الربان ؟ فنحن بقولك نهتدي وبعلمك نقتدي ، فقال : ما يمنعني أن أتكلم وأبتدي ، إلا أن بينكم رجل محمدي ، وقد جاء لدينكم ممتحناً وعليكم معتدي ، فقالوا : أرنا إياه نقتله الآن ؟ فقال : لا تقتلوه إلا بدليل وبرهان ، فإني أريد أن أمتحنه وأسأله عن مسائل في علم الأديان فإن أجاب عنها وأبان تركناه ، وإن عجز عن تفسيرها قتلناه ، وعند الامتحان يعز المرء أو يهان ، فقالوا له : افعل ما تريد فنحن ما حضرنا إلا لنستفيد فقام كبيرهم على قدميه ونادى : يا محمدي بحق محمد عليك إلا ما نهضت قائماً على قدميك لتنظر العيون إليك فقام أبو يزيد ولسانه لا يفتر عن التقديس والتمجيد . فقال له البطرك : يا محمدي أريد أن أسألك عن مسائل فإن أجبت عنها وفسرتها

اتبعناك وإن عجزت عن تفسيرها قتلناك . فقال أبو يزيد سل عما تريد من المنقول والمعقول والله شاهد على ما نقول . فقال له البطرك : أخبرني عن واحد لا ثاني له ، وعن اثنين لا ثالث لهما ، وعن ثلاثة لا رابع لهم ، وعن أربعة لا خامس لهم ، وعن خمسة لا سادس لهم ، وعن ستة لا سابع لهم ، وعن سبعة لا ثامن لهم ، وعن ثمانية لا تاسع لهم ، وعن تسعة لا عاشر لهم ، وعن عشرة كاملة وعن أحد عشر ، وعن اثني عشر ، وعن ثلاثة عشر ، وعن قوم كذبوا وأدخلوا الجنة ، وعن قوم صدقوا وأدخلوا النار وأين مستقر اسمك من جسمك ، وعن الذاريات ذروا ، وعن الحاملات وقرا ، وعن الجاريات يسرا ، وعن المقسمات أمرا ، وعن شيء تنفس بغير روح ونسألك عن أربعة عشر تكلموا مع رب العالمين ، وعن قبر مشى بصاحبه ، وعن ماء لا نزل من السماء ولا نبع من الأرض ، وعن أربعة لا من ظهر أب ولا من بطن أم ، وعن أول دم أريق على وجه الأرض . ونسألك عن شيء خلقه الله ثم اشتراه . ونسألك عن شيء خلقه الله ثم أنكره ونسألك عن شيء خلقه الله ثم استعظمه . وعن شيء خلقه الله وسأل عنه . وعن أفضل النساء . وعن أفضل البحار . وعن أفضل الجبال . وعن أفضل الدواب . وعن أفضل الشهور . وعن أفضل الليالي وعن الطامة . وعن شجرة لها اثنا عشر غصناً في كل غصن ثلاثون ورقة وفي كل ورقة خمس زهرات اثنتان في الشمس وثلاثة في الظل . وعن شيء حج إلى بيت الله الحرام وطاف وليس له روح ولا وجبت عليه فريضة . وكم من نبي خلقه الله . وكم منهم مرسل وغير مرسل . وعن أربعة أشياء مختلف طعمها ولونها . والأصل واحد . وعن النقير والقطمير والفتيل . وعن السبد واللبد وعن الطم والرم . وأخبرنا ما يقول الكلب في نبيحه . وما يقول الحمار في نهيقه . وما يقول الثور في نعيره . وما يقول الفرس في صهيله . وما يقول البعير في رغائه . وما يقول الطاوس في صياحه . وما يقول الدرّاج في صفيره . وما يقول البلبل في تغريده . وما يقول الضفدع في تسبيحه . وما يقول الناقوس في نقيره وأخبرنا عن قوم أوحى الله إليهم لا من الجن ولا من الإنس ولا من الملائكة ، وأخبرنا أين يكون الليل إذا جاء النهار ، وأين يكون النهار إذا جاء الليل ؟ فقال أبو يزيد : هل بقي أسئلة غير هذه ؟ قالوا : لا ، فإن فسرتها لكم وأجبت عنها تؤمنوا بالله ورسوله ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم أنت الشاهد على ما يقولون ، ثم قال : أما سؤالكم عن واحد لا ثاني له فهو الله الواحد القهار ، وأما سؤالكم عن اثنين لا ثالث لهما فهما الليل والنهار ، لقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾ : [الإسراء : ١٢] وأما سؤالكم عن ثلاثة لا رابع لهم فهم العرش والكرسي والقلم . وعن أربعة لا خامس لهم فهم الكتب المنزلة التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . وأما سؤالكم عن خمسة لا سادس لهم فهم الصلوات الخمس المفروضة

على كل مسلم ومسلمة . وأما سؤالكم عن ستة لا سابع لهم فهم الستة أيام التي ذكرها الله في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ : [ق : ٣٨] وأما سؤالكم عن سبعة لا ثامن لهم فهم السبع سموات لقوله تعالى ﴿ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ : [الملك : ٣] . وأما سؤالكم عن ثمانية لا تاسع لهم فهم حملة العرش لقوله تعالى ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ : [الحاقة : ١٧] وأما سؤالكم عن تسعة لا عاشر لهم فهم التسعة رهط المفسدون لقوله تعالى ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ : [النمل : ٤٨] وأما سؤالكم عن عشرة كاملة فهي العشرة أيام يصومها المتمتع عند فقد الهدي لقوله تعالى ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ : [البقرة : ١٩٦] . وأما سؤالكم عن أحد عشر فهم أخوة يوسف لقوله تعالى حكاية عنه : ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ : [يوسف : ٤] .

وأما سؤالكم عن اثني عشر فهي عدة الشهور لقوله تعالى ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ : [التوبة : ٣٦] . وأما سؤالكم عن ثلاثة عشر فهي رؤيا يوسف لقوله تعالى : ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ : [يوسف : ٤] وأما سؤالكم عن قوم كذبوا وأدخلوا الجنة فهم إخوة يوسف لقوله تعالى ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ : [يوسف : ١٧] فكذبوا وأدخلوا الجنة . وأما سؤالكم عن قوم صدقوا وأدخلوا النار فهم اليهود والنصارى لقوله تعالى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ : [البقرة : ١١٣] فصدقوا وأدخلوا النار . وأما سؤالكم أين مستقر أسمك من جسمك فمستقره أذناك . وأما سؤالكم عن الذاريات ذروا فهي الرياح الأربع . وأما سؤالكم عن الحاملات وقرا فهي السحب لقوله تعالى ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ : [البقرة : ١٦٤] . وأما سؤالكم عن الجاريات يسرا فهي السفن الجاريات في البحر . وأما سؤالكم عن المقسمات أمرا فهم الملائكة الذين يقسمون على الناس أرزاقهم من نصف شعبان إلى نصف شعبان . وأما سؤالكم عن أربعة عشر تكلموا مع رب العالمين فهم السبع سموات والسبع أرضين لقوله تعالى ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ : [فصلت : ١١] . وأما سؤالكم عن قبر مشى بصاحبه فهو حوت يونس عليه السلام . وأما سؤالكم عن شيء تنفس بلا روح فهو الصبح لقوله تعالى ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ : [التكوير : ١٨] . وأما سؤالكم عن ماء لا نزل من السماء ولا نبع من الأرض فهو الماء الذي بعثته بلقيس في قارورة من عرق الخيل إلى سليمان بن داود عليهما السلام ، وأما سؤالكم عن أربعة لا من ظهر أب ولا من بطن أم فهم كبش إسماعيل وناقة

صالح وآدم وحواء . وأما سؤالكم عن أول دم أهريق على وجه الأرض فهو دم هابيل لما قتله قابيل ، وأما سؤالكم عن شيء خلقه الله ثم اشتراه فهو نفس المؤمن لقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ : [التوبة : ١١١] . وأما سؤالكم عن شيء خلقه الله وأنكره فهو صوت الحمار لقوله تعالى ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ : [لقمان : ١٩] . وأما سؤالكم عن شيء خلقه الله واستعظمه فهو كيد النساء لقوله تعالى ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ : [يوسف : ٢٨] . وأما سؤالكم عن شيء خلقه الله وسأل عنه فهي عصا موسى لقوله تعالى ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ : [طه : ١٧ ـ ١٨] . وأما سؤالكم عن أفضل النساء فهي حواء أم البشر وخديجة وعائشة وآسية ومريم ابنة عمران رضي الله عنهم أجمعين ، وأما سؤالكم عن أفضل البحار فهو سيحون وجيحون والدجلة والفرات ونيل مصر ، وأما سؤالكم عن أفضل الجبال فهو جبل الطور ، وأما سؤالكم عن أفضل الدواب فهي الخيل ، وأما سؤالكم عن أفضل الشهور فهو شهر رمضان لقوله تعالى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ : [البقرة : ١٨٥] ، وأما سؤالكم عن أفضل الليالي فهي ليلة القدر لقوله تعالى ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ : [القدر : ٣] . وأما سؤالكم عن الطامة فهي يوم القيامة ، وأما سؤالكم عن شجرة لها اثنا عشر غصناً في كل غصن ثلاثون ورقة في كل ورقة خمس زهرات اثنان في الشمس وثلاثة في الظل : أما الشجرة فهي السنة ، وأما الأغصان فهي الشهور ، وأما الأوراق فهي الأيام ، وأما الخمس زهرات فهي الصلوات الخمس في اليوم والليلة ثلاثة في الظل المغرب والعشاء والصبح واثنتان في الشمس وهما الظهر والعصر ، وأما سؤالكم عن شيء حج بيت الله الحرام وطاف وليس له روح ولا وجبت عليه فريضة فهي سفينة نوح عليه السلام ، وأما سؤالكم كم خلق الله من نبيّ وكم منهم مرسل فأما الأنبياء فهم مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي ، وأما المرسلون منهم فثلثمائة وثلاثة عشر . وأما سؤالكم عن أربعة أشياء مختلف طعمها ولونها والأصل واحد فهي العينان والأنف والفم والأذنان ، فماء العينين مالح وماء الفم حلو وماء الأنف حامض ، وماء الأذنين مرّ . وأما سؤالكم عن النقير فهي النقرة التي في ظهر النواة والقطمير هي القشرة البيضاء ، والفتيل الذي يكون في بطن النواة . وأما سؤالكم عن السبد واللبد فهو شعر الضأن والمعز . وأما سؤالكم عن الطمّ والرمّ فهم الأمم الماضية قبل أبينا آدم عليه السلام . وأما سؤالكم عما يقول الحمار في نهيقه فإنه يرى الشيطان فيقول لعن الله العشار وهو المكاس . وأما سؤالكم عما يقول الكلب في نبيحه فإنه يقول : ويل لأهل النار من غضب الجبار . وأما سؤالكم عما يقول الثور في نعيره فإنه يقول : سبحان الله وبحمده . وأما سؤالكم عما يقول الفرس في صهيله فإنه يقول

سبحان حافظي إذا التقت الأبطال واشتغلت الرجال بالرجال . وأما سؤالكم عما يقول البعير في رغائه فإنه يقول حسبي الله وكفى بالله وكيلاً . وأما سؤالكم عما يقول الطاوس في صياحه فإن يقول : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] وأما سؤالكم عما يقول البلبل في تغريده فإنه يقول سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وأما سؤالكم عما يقول الضفدع في تسبيحه فإنه يقول سبحان المعبود في البراري والقفار سبحان الملك الجبار . وأما سؤالكم عما يقول الناقوس في نقيره فإنه يقول سبحان الله حقاً حقاً انظر يا ابن آدم في الدنيا غرباً وشرقاً ما ترى فيها أحداً يبقى . وأما سؤالكم عن قوم أوحى الله إليهم لا من الإنس ولا من الجن ولا من الملائكة فهم النحل لقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل : ٦٨] . وأما سؤالكم عن الليل أين يكون إذا جاء النهار وأين يكون النهار إذا جاء الليل ؟ فإنهما يكونان في غامض علم الله تعالى ما أظهر عليه نبي مرسل ولا ملك مقرّب ، بك كان ذلك في غامض علم الله تعالى ، ثم قال أبو زيد : هل تعالى ما أظهر عليه بقي لكم سؤال ؟ قالوا : لا ، قال : فأخبرني أنت عن مفتاح السموات ومفتاح الجنة ما هو ؟ فسكت كبيرهم فقالوا له : أنت سألته عن مسائل كثيرة فأجاب عنها جميعها ، وقد سألك عن مسألة واحدة فعجزت عن جوابها ؟ فقال : ما عجزت ولكني أخاف أن أجيبه عن سؤاله فلا توافقوني ، فقالوا : بلى نوافقك إذا أنت كبيرنا ومهما قلت لنا سمعناه ووافقناك عليه . فقال : مفتاح السموات والجنة قول لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ، فلما سمعوا ذلك منه أسلموا عن آخرهم وأخربوا الدير وبنوه مسجداً وقطعوا زنانيرهم فهنالك نودي أبو يزيد في سره : يا أبا يزيد أنت شددت من أجلنا زناراً واحداً فقطعنا من أجلك خمسمائة زنار :

يـــا رب إني راض ما شئت فضلاوعدلا سيرتني تحت أمر رضيته لم أقل لا
هديت قوماً وكانوا نصبوا لي الشرك جهلا قوّمتهم فاستقاموا جمعت للقوم شملا
حول الجناب تراهم قد عفروا الخدّ ذلاً أصواتهم زينوها بقوله أشهد أن لا
وشاهدوا الحق جهراً لما بدا وتجلى

[**إخواني**] هؤلاء كانوا كفاراً في ظلمات العمى فأنقذهم الله بنور الهدى وحماهم من الردى ، كل ذلك ببركة قوله لا إلّه إلا الله ، فانظروا إلى كلمة الإخلاص ما أعظم بركاتها وأنجح حاجاتها فرطبوا ألسنتكم بها لتنالوا بركة إحسانها وتظفروا بحلاوة امتنانها وتدخلوا حرم أمانها ، فإنها حصن منيع ودرع رفيع ، وقد قال تعالى في بعض كتبه المنزلة : أكثروا من قول لا إلّه إلى الله ، فإنها حصني ، ومن دخل حصني أمن عذابي ، وقال بعض الصحابة : من قال لا إلّه

إلا الله مخلصاً من قلبه ومدها بالتعظيم غفر له أربعة آلاف ذنب . فإن لم يكن له أربعة آلاف ذنب يغفر من ذنوب أهله وجيرانه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الليل والنهار أربعة وعشرون ساعة وحروف لا إلّه إلا الله محمد رسول الله أربعة وعشرون حرفاً ، فمن قال لا إلّه إلا الله محمد رسول الله كفر كل حرف ذنوب ساعة فلا يبقى عليه ذنب إذا قالها في كل يوم مرة ، فكيف بمن يكثر من قول لا إلّه إلا الله ويجعلها شغله ؟

[إخواني] إن كنتم عاصين فقولوا لا إلّه إلا الله فإنها تكفر الذنوب والعصيان ، وإن كنتم طائعين فجددوا إيمانكم بقول لا إلّه إلا الله ، فإنها تجدد الإيمان وتحرز الأمن والأمان والعفو والغفران من الملك المنان :

ما ضلّ عبد وأنت ترشده ... وكيف يشقى من أنت تسعده ... أم كيف يطفي اللهيب من كبدي
والشوق مني إليك يوقده ... عليك لا لوم في مهاجرتي ... الذنب فلا أعدده
من أين لي الصبر عنك يا أملي ... فصبري اليوم فيك أفقده ... والله ما خاب في توجهه
من أنت من ذا الوجود مقصده ... كلا ولا ضل عن طريق هدى ... من كان بالمصطفى تقيده

المجتبى المرتضى الذي سعدت ... زوّاره منه حين تقصده
عليه منا الصلاة دائمة ... ومن إلّه ما خاب قاصده

المجلس الثامن والأربعون

في زواج علي بن أبي طالب بفاطمة رضي الله عنهما وشفعهما فينا

الحمد لله العظيم المحمود ، الكريم المقصود القديم الموجود ، الذي أطلع من آفاق التوفيق لأهل التحقيق نجوم السعود ، وجلى عرائس الموجود في مرآة الشهود ، فمن فهم المطلوب بلغ المقصود زين زمان الربيع بعروس غروس الأشجار تخطر في حلل البهاء بقدود كل غصن أملود وأقام في غرسها خطباء الأطيار على منابر الأشجار تثني في الأسحار بحمد الملك المعبود ، وجعل العقل حكماً على الجوارح والعينين من جملة الشهود ، وأمرهم بالتفكر في عجائب مصنوعاته فشهدوا عقد حبات السنبل والعنقود ، فاعجب لصانع القدرة بعد النظر والفكرة كيف كوّن هذه الأكوان المختلفة الأعيان القاطعة لأهل الطغيان والجحود ؛ فسبحان مفجر

الأنهار من صم صخر الجلمود ومطلع الأزهار من خلال الأشجار ومخرج ثمرها من عود ، زين السماء بالنيرين ، والبطحاء بالعمرين والزهراء بالسبطين ، وجعل جدهما أشرف الجدود ، فكم مشتقاق إليه لهفان عليه كدحت نجائب الشوق إليه بالسوق الكدود ، فقطعت به مفاوز الهجر والصدود ، فإذا وصلت إلى ذلك النادي تراها تنود وإذا حدا لها الحادي أرخت الدموع على الخدود :

عج على الوادي ونجد وزرود أيها الحادي وأنجز بالوعود ثم عرّج بالمطايا فلها
بين وادي الشيح والرند ورود خلها ترعى بكثبان الحمى فلها فيها هبوط وصعود
لا تسقها أيها الحادي فما ترك الشوق بها إلا الجلود لو تشاهدها إذا ما استنشقت
نسمات الحي بالنفس تجود وإذا لاحت لها دار المنى مدت الأعناق بالسعي الكدود

للنبي الهاشمي المصطفى صفوة الرحمن من كل الوجود
فعليه الله صلى كلما صدحت قمرية من فوق عود

[روي عن أنس بن مالك ﷺ] قال : قال رسول الله ﷺ : « فاطمة بضعة مني فاطمة حوراء إنسية » . وروي عن بعض الرواة الكرام أن خديجة الكبرى رضي الله عنها تمنت يوماً من الأيام على سيد الأنام أن تنظر إلى فاكهة دار السلام ، فأتى جبريل إلى المفضل على الكونين من الجنة بتفاحتين وقال : يا محمد يقول لك من جعل لكل شيء قدراً كل واحدة وأطعم الأخرى لخديجة الكبرى ، واغشها فإني خالق منكما فاطمة الزهراء ، ففعل المختار ما أشار به الأمين وأمر ، فلما سأله الكفار أن يريهم انشقاق القمر ، وقد بان لخديجة حملها بفاطمة وظهر ، قالت خديجة : واخيبة من كذّب محمداً وهو خير رسول ونبي ، فنادت فاطمة من بطنها : يا أماه لا تحزني ولا ترهبي فإن الله مع أبي ، فلما تمّ أمد حملها وانقضى وضعت فاطمة فأشرق بنور وجهها الفضاء وكان المختار كلما اشتاق إلى الجنة ونعيمها قبل فاطمة شم طيب نسيمها . فيقول حين ينشق نسماتها القدسية : إن فاطمة لحوراء إنسية ، فلما استنارت في سماء الرسالة شمس جمالها وتمّ في أفق الجلالة بدر كمالها امتدت إليها مطالع الأفكار وتمنت النظر إلى حسنها أبصار الأخيار وخطبها سادات المهاجرين والأنصار ، ردهم المخصوص من الله بالرضا ، وقال : إني أنتظر بها القضا :

من مثل فاطمة الزهراء في نسب وفي فخار وفي فضل وفي حسب
والله فضلها حقاً وشرفها إذ كانت ابنه خير العجم والعرب

ولقد خطبها أبو بكر وعمر ، فقال لهما رسول الله ﷺ : إن أمرها إلى الله تعالى ؛ ثم إن أبا بكر وعمر وسعد بن معاذ كانوا جلوساً في مسجد رسول الله ﷺ ، فتذاكروا أمر فاطمة رضي الله عنها ، فقال أبو بكر : قد خطبها الأشراف ، فردهم رسول الله ﷺ ، وقال : إن أمرها إلى الله عز وجل ، وإن علياً لم يخطبها ولم يذكرها ولا أرى ما يمنعه من ذلك إلا قلة ذات اليد وإنه ليقع في نفسي أن الله تعالى ورسوله إنما يحبسانها لأجله ، ثم أقبل أبو بكر على عمر وعلى سعد ، وقال لهما : هل لكما في القيام إلى عليّ كرّم الله وجهه فنذكر له أمرها فإن منعه من ذلك قلة اليد واسيناه . فقال سعد : وفقك الله يا أبا بكر فخرجوا من المسجد والتمسوا علياً في مسجده فلم يجدوه ، وكان ينضح الماء ببعير على نخل لرجل من الأنصار بأجرة فانطلقوا نحوه فلما رآهم قال : ما وراءكم ؟ فقال أبو بكر ﷺ : يا أبا الحسن إنه لم يبق خصلة من خصال الخير إلا ولك فيها سابقة وفضل وأنت من رسول الله ﷺ بمكان الذي عرفت من القرابة ، وقد خطب الأشراف من قريش إلى رسول الله ﷺ ابنته فاطمة ، فردّهم وقال : إن أمرها إلى الله تعالى فما يمنعك أن تذكرها وتخطبها فإني أرجو أن يكون الله عزّ وجل ورسوله يحبسانها لك ؟ قال : فتغرغرت عينا عليّ بالدموع . وقال : يا أبا بكر لقد هيجت عليّ ما كان ساكناً وأيقظتني لأمر كنت عنه غافلاً والله إن لي في السيدة لرغبة ، وما مثلي من يقعد عن مثلها ولكن يمنعني من ذلك قلة ذات اليد . فقال أبو بكر : لا تقل كذا يا أبا الحسن فإن الدنيا وما فيها عند الله ورسوله كهباء منثور . ثم إن علياً كرّم الله وجهه حلّ عن ناضحه وقاده إلى منزله فشده فيه وأخذ نعله وأقبل إلى رسول الله ﷺ عند أم سلمة فطرق الباب فقالت : من بالباب ؟ فقال رسول الله ﷺ : قومي وافتحي له الباب ، هذا رجل يحبه الله ورسوله ويحبهما ، فقالت : فداك أبي وأمي ومن هذا ؟ فقال : هذا أخي بأحبّ الخلق إليّ ، قالت أم سلمة : فقمت مبادرة أكاد أعثر في مرطي ففتحت الباب . فإذا أنا بعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ، فوالله ما دخل حتى علم أني قد رجعت إلى خدري فدخل وسلم فرد عليه النبي ﷺ السلام ، ثم قال له : اجلس فجلس بين يدي النبي ﷺ وجعل يطرق إلى الأرض كأنه قاصد حاجة يستحي منه ، فقال له النبي ﷺ : يا علي كأنك قاصد حاجة فابدأ بما في نفسك فكل حاجتك عندي مقضية ، فقال علي ﷺ : فداك أبي وأمي يا رسول الله إنك لتعلم أنك أخذتني من عمك أبي طالب ومن فاطمة بنت أسد وأنا صبي لا أعقل شيئاً ، فهديتني وأدبتني وهذبتني فكنت لي أفضل من أبي طالب وفاطمة بنت أسد في البرّ والشفقة وإن الله عز وجلّ هداني بك واستنقذني عما كان عليه

آبائي وأعمامي من الشرك ، وإنك يا رسول الله ذخري ووسيلتي في الدنيا والآخرة وقد أحببت مع ما شدّ الله عز وجل بك من عضدي أن يكون لي بيت وزوجة أسكن إليها وقد أتيتك خاطباً ابنتك فاطمة فهل تزوّجني يا رسول الله ؟ قالت أم سلمة : فرأيت وجه رسول الله ﷺ قد تهلل فرحاً وسروراً ثم تبسم في وجه عليّ ، وقال يا علي هل معك شيء تصدقها إياه ؟ قال : والله ما يخفى عليك حالي ولا شيء من أمري ما أملك غير درعي وسيفي وناضحي . فقال رسول الله ﷺ : أما سيفك فلا غنى لك عنه تجاهد به في سبيل الله ، وأما ناضحك فتنضح عليه لأهلك وتحمل عليه رحلك في سفرك ولكني زوّجتك على درعك ورضيت به منك وأبشر يا أبا الحسن فإن الله عز وجلّ قد زوّجك بها في السماء قبل أن أزوّجك بها في الأرض ، ولقد هبط عليّ ملك من السماء قبل أن تأتيني لم أر قبله من الملائكة مثله بوجوه شتى وأجنحة شتى ، فقال لي : السلام عليك يا رسول الله أبشر باجتماع الشمل وطهارة النسل فقلت : وما ذاك ، أيها الملك ؟ فقال : يا محمد أنا سبطائيل الموكل بإحدى قوائم العرش سألت الله تعالى أن يأذن لي ببشارتك وهذا جبريل عليه السلام آت على أثري يخبرك عن ربك بكرامة الله عز وجلّ ، قال النبي ﷺ : فما استتم الملك كلامه حتى هبط جبريل عليه السلام ، فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ثم وضع في يدي حريرة بيضاء فيها سطران مكتوبان بالنور فقلت : حبيبي جبريل ما هذه الخطوط ؟ قال : إن الله عزّ وجلّ اطلع على الأرض اطلاعة فاختارك من خلقه وبعثك برسالته ثم اطلع إليها ثانية فاختار لك منها أخاً ووزيراً وصاحباً وحبيباً فزوّجه ابنتك فاطمة ، قلت : حبيبي جبريل ومن هذا الرجل ؟ فقال : أخوك في الدين وابن عمك في النسب علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وأن الله تعالى أوحى إلى الجنان أن تزخرفي وإلى الحور أن تزيني وإلى شجرة طوبى أن احملي الحلى والحلل وأمر الملائكة أن تجتمع في السماء الرابعة عند البيت المعمور فهبطت ملائكة الصفيح الأعلى وأمر الله تعالى رضوان فنصب منبر الكرامة على باب البيت المعمور وهو المنبر الذي خطب عليه آدم عليه السلام حين علمه الله الأسماء وأمر الله عز وجل ملكاً من ملائكة الحجب يقال له راحيل فعلا ذلك المنبر وحمد الله بجميع محامده وأثنى عليه بما هو أهله فارتجت السموات فرحاً وسروراً . قال جبريل : وأوحى الله تعالى إليّ أن أعقد عقدة النكاح فإني زوّجت علياً ولِيي بفاطمة أَمتي بنت رسولي وصفوتي من خلقي محمد ﷺ فعقدت عقدة النكاح وأشهدت على ذلك الملائكة ، وكتبت شهادتهم في هذه الحريرة ، وقد أمرني ربي أن أعرضها عليك وأختمها بخاتم من مسك أبيض وأدفعها إلى رضوان خازن الجنان . ثم إن الله

تعالى لما أشهد على تزويج فاطمة ملائكته أمر شجرة طوبى أن تنثر ما فيها من الحلى والحلل فنثرت ذلك والتقطته الحور العين والملائكة وإن الحور العين ليتهادونه إلى يوم القيامة ، وقد أمرني أن آمرك بتزويجها علياً في الأرض وأن أبشرها بغلامين ذكيين نجيبين فاضلين طاهرين خيرين في الدنيا والآخرة . قال رسول الله ﷺ : ما عرج الملك يا أبا الحسن حتى طرقت الباب ، وألا وإني منفذ فيك أمر ربي فامض يا أبا الحسن أمامي فإني ذاهب إلى المسجد ومزوجك على رؤوس الناس ، وذاكر من فضلك ما تقرّ به عينك . قال عليّ كرّم الله وجهه : فخرجت من عنده مسرعاً وأنا لا أعقل من شدة الفرح فاستقبلني أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فقالا لي : ما رواءك يا أبا الحسن ، قلت : زوّجني رسول الله ﷺ فاطمة وأخبرني أن الله تعالى زوّجني بها في السماء وهذا رسول ﷺ آت على أثري إلى المسجد فيقول ذلك في محضر من الناس ، ففرحا بذلك ودخلا المسجد ، فوالله ما توسطاه حتى لحق بنا رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل سروراً . فقال رسول الله ﷺ : يا بلال اجمع المهاجرين والأنصار فانطلق بلال لأمر رسول الله ﷺ وجلس النبي ﷺ قريباً من منبره حتى اجتمع الناس ثم قام فرقى المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر المسلمين إن جبريل أتاني آنفا فأخبرني أن الله عز وجل استشهد الملائكة عند البيت المعمور أنه زوج أمته فاطمة ابنتي من عبده علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وأمرني أن أزوجه في الأرض وأشهدكم على أني زوّجته بها . ثم جلس وقال لعليّ : قم يا علي واخطب لنفسك فقام علي ﷺ عنه فحمد الله وأثنى عليه . فقال : الحمد لله وشكراً لأنعمه وأياديه : وأشهد أن إلـه إلا الله وحده لا شريك له ولا شبيه ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الوجيه ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وبنيه صلاة ترضيه . وبعد ، فإن النكاح سنة أمر الله به وأذن فيه وقد زوجني رسول الله ﷺ ابنته فاطمة وجعل صداقها درعي هذا وقد رضيت ورضي فاسألوه واشهدوا . فقال المسلمون : بارك الله فيكما وعليكما وجمع شملكما . ثم انصرف رسول لله ﷺ إلى أزواجه فأمرهن أن يدففن لفاطمة رضي الله عنها فضرب أزواج النبي ﷺ بالدفوف على رأس فاطمة ، قال علي ﷺ : فأخذت درعي ومضيت به إلى السوق فبعته بأربعمائة درهم من عثمان بن عفان ﷺ . فلما قبضت الدراهم وقبض الدرع قال لي : يا أبا الحسن ألست الآن أولى منك بالدرع وأنت أولى مني بالدراهم ؟ قلت : بلى قال : فإن الدرع هدية مني إليك ، قال علي : فأخذت الدرع والدارهم وأتيت بهما إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما كان من عثمان فدعا له بخير وقبض رسول الله ﷺ قبضة من الدراهم ، ثم دعا بأبي بكر ﷺ

فقال : يا أبا بكر اشتر بهذه الدراهم ما يصلح لفاطمة وأرسل معه سلمان وبلالاً يعينانه على حمل ما يشتريه . قال أبو بكر ﷺ : كانت الدراهم التي دفعها إليّ رسول الله ثلاثة وستين درهماً فاشتريت فراشاً من خيش محشواً بالصوف ونطعاً من أديم ووسادة من أديم حشوها من ليف النخل وقربة للماء وكيزاناً وستر صوف رقيق فحملت أنا بعضه وسلمان بعضه وبلال بعضه وأقبلنا فوضعناه بين يدي رسول الله ﷺ فلما نظر إليه بكى . ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم بارك لقوم شعارهم الخوف منك قال علي : ودفع رسول الله ﷺ باقي ثمن الدرع إلى أم سلمة وقال : ارفعي هذه الدراهم عندك فمكثت بعد ذلك شهراً لا أعاود رسول الله ﷺ حياء منه غير أني كنت إذا خلوت برسول الله ﷺ يقول لي : يا أبا الحسن زوّجتك سيدة نساء العالمين . قال علي : فلما كان بعد شهر دخل عليّ أخي عقيل بن أبي طالب ، فقال : يا أخي ما فرحت قط بشيء كفرحي بتزوّجك فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإن تدخل عليها قرّت أعيننا باجتماع شملكما ، فقلت : ولله إني لأحب ذلك وما يمنعني إلا الحياء من رسول الله ﷺ ، فقال : أقسمت عليك إلا ما قمت معي فقمت منه نريد رسول الله ﷺ فلقيتنا في طريقنا أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ فذكرنا لها ذلك فقالت : أمهلا ودعانا نحن نكلمه في أمرها فإن كلام النساء أوقع في النفس من كلام الرجال . ثم انثنت راجعة إلى أم سلمة فأعلمتها بذلك وأعلمت نساء رسول الله ﷺ فاجتمعت أمهات المؤمنين إلى رسول الله وكان في بيت عائشة ، فأحدقن به وقلن : يا رسول الله ﷺ فديناك بآبائنا وأمهاتنا إنا قد اجتمعنا لأمر لو أن خديجة في الأحياء لقرّت عيناها بذلك قال أم سلمة : فلما ذكر خديجة بكى رسول الله ﷺ وقال : وأين مثل خديجة صدّقتني حين كذبني الناس وأعانتني على ديني ودنياي بمالها . فقالت أم سلمة : يا رسول الله إن خديجة كانت كذلك غير أنها مضت إلى ربها فالله تعالى يجمع بيننا وبينها في درجات الجنة ، وهذا أخوك في الدين وابن عمك في النسب علي بن أبي طالب يحب أن يدخل على زوجته فاطمة . فقال رسول الله ﷺ : يا أم سلمة أرسلي إلى أم أيمن وأمريها أن تنطلق إلى عليّ فتأتيني به فخرجت أم أيمن فإذا عليّ ينتظرها . فقالت له : أجب رسول الله ﷺ ، قال علي : فانطلقت معها إلى رسول الله ﷺ وهو في حجرة عائشة رضي الله عنها فقامت أزواجه . فدخلن البيت فجلست بين يدي رسول الله ﷺ مطرقاً فقال : أتحب أن تدخل على زوجتك ؟ فقلت : نعم فداك أبي وأمي ، فقال : حباً وكرامة تدخل عليها في ليلتنا هذه إن شاء الله تعالى ، قال علي : ثم قمت من عنده فرحاً مسروراً فأمر رسول الله ﷺ أن تزين فاطمة وتطيب ويفرش لها ودفع النبي ﷺ

لعلي عشرة دراهم من الدراهم التي كانت عند أم سلمة وقال له : اشتر بهذه تمراً وسمناً وأقطاً . قال علي : فاشتريت ذلك وأتيت به إلى رسول الله ﷺ فحسر عن ذراعيه ودعا بسفرة من أدم فجعل يشدخ التمر بالسمن ويخلطه بالأقط حتى جعله حيساً . ثم قال : يا علي ادع من أحببت فخرجت إلى المسجد فوجدت أصحاب رسول الله ﷺ فقلت : أجيبوا رسول الله ﷺ فقام القوم بأجمعهم فأقبلوا نحوه فأخبرته أن القوم كثير فجلل السفرة بمنديل . ثم قال : ليدخلن عشرة عشرة ففعلت ذلك فجعلوا يأكلون ويخرجون والسفرة لا تنقص حتى أكل من ذلك الحيس سبعمائة رجل ببركة النبي ﷺ ثم دعا رسول الله ﷺ بفاطمة وعلي فأخذ علياً بيمينه وفاطمة بشماله وجمعها إلى صدره وقبلهما بين عينيها ثم دفعها إليه . وقال : يا أبا الحسن نعم الزوجة زوجتك ثم قام يمشي معهما إلى البيت الذي لهما ، ثم خرج وأخذ بعضادتي الباب ، وقال : جمع الله شملكما استودعتكما الله واستخلفته عليكما فأقبل علي ﷺ على فاطمة يلاطفها بالكلام حتى جن الظلام فأخذت في البكاء ، فقال : ما يبكيك يا سيدة النساء ألم ترضيني أن أكون لك بعلاً وتكوني لي أهلاً ؟ فقالت : يا ابن العم كيف لا أرضى وأنت الرضا وفوق الرضا ، وإنما فكرت في أمري وحالي عند ذهاب عمري ونزولي في قبري فشبهت دخولي إلى فراش عزي وفخري بدخولي لحدي وقبري ، وأنا أسألك يا ابن العم بحق أبي إلا ما بلغتني قصدي وأربي وقمت بنا إلى محرابنا نتعبد في هذه الليلة فهو أحق وأحرى بنا فنهضا إلى المحراب ، وقاما إلى التهجد في خدمة رب الأرباب .

[**إخواني**] ما كانت همم القوم في الدنيا ولذاتها ، ولا في راحة النفس وشهواتها ، ولا كانت تسمو هممهم العالية إلا إلى الدار الباقية لا جرم جعل ذكرهم في الكتاب مسطوراً ، وكتب لهم بالبشارة منشوراً : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] فتركا فراش لذاتهما واشتغلا بعبادتهما فكانا يقطعان الليل بالقيام والنهار وبالصيام حتى مضت ثلاثة أيام ، ثم رقدا على فراشهما ، فهبط الأمين جبريل عليه السلام في اليوم الرابع على سيد الأنام وقال له : ربك يقرئك السلام ، ويقول لك إن علياً وفاطمة الكرام ، تركا فراشهما وهجرا المنام في هذه الثلاثة أيام ، وأقبلا على الصيام والقيام ، فامض إليهما وسل عنهما وقل لهما : إن الله تعالى قد باهى بكما الملائكة المقربين ، وإنكما تشفعان يوم القيامة في العصاة والمذنبين ، فقام النبي ﷺ وأتى إلى منزلها ودخل فصادف في البيت أسماء بنت عُميس ، فقال لها : ما يوقفك ههنا وفي البيت رجل ؟ فقالت : فداك أبي وأمي يا رسول الله إن البنت إذا زفت إلى زوجها

احتاجت إلى امرأة تتعهدها وتقوم بأمرها وبحوائجها فقمت ههنا لأقضي حوائج فاطمة فتغرغرت عينا رسول الله ﷺ بالدموع ، وقال : يا أسماء قضى الله لك كل حاجة من حوائج الدنيا والآخرة . قال عليّ ﷺ : وكانت غداة قرّ وبرد شديد ، وكنت أنا وفاطمة تحت العباءة ، فلما سمعنا كلام رسول الله ﷺ همنا أن نقوم فنظرنا رسول الله ﷺ فقال : سألتكما بحقي عليكما لا تفرقا حتى أدخل عليكما فرجع كل واحد إلى صاحبه ودخل النبي ﷺ فجلس عند رؤوسنا وأدخل رجليه فيما بيننا فأخذت رجله اليمنى وضممتها إلى صدري وأخذت فاطمة رجله اليسرى فضمتها إلى صدرها ، وجعلنا ندفىء رجلي رسول الله ﷺ من البرد حتى دفئتا ثم دعا لنا بخير ، ثم أمر علياً بالخروج فخرج فقال لفاطمة : كيف رأيت بعلك يا بنية ؟ فقالت : إنه خير بعل يا أبت ثم دعا بعليّ فقال له : ارفق بزوجتك والطف بها فإن فاطمة بضعة مني يؤلمني ما يؤلمها ويسرني ما يسرها استودعتكما الله واستخلفته عليكما ، وأذهب عنكما الرجس وطهركما تطهيراً . قال علي كرّم الله وجهه : فوالله ما أغضبتها ولا أكرهتها بعد ذلك على أمر حتى قبضها الله تعالى إليه ، ولا أغضبتني ولا عصت لي أمراً ، ولقد كانت تكشف عن الهموم والأحزان كلما نظرت إليها ، رحمة الله عليها :

من مثل فاطمة البتول وبعلها ... أعني علياً سيد الفرسان
نالا من المختار أعلى رتبة ... فلأجل ذا فاقا على الأقران
تركا فراشهما وقاما في الدجى ... يتلذذان بطاعة الرحمن
قد آثرا الأخرى على الدنيا وما ... فيها من العيش اليسير الفاني
والله قد باهى ملائكة السما ... بهما وخصهما بكل أمان
هم آل بيت المصطفى والعروة الـ ... ـوثقى لمن يبغي سنا الإيمان
وبهم يزول الهم عنا والأذى ... وبهم تزول غواية الشيطان
ماذا يقول المادحون لوصفهم ... ومديحهم قد جاء في القرقان
يا فوز من أضحى به متمسكاً ... وغدا له نور من المنان
فبهم غداً أرجوا النجاة وأتقي ... سوء العذاب وزفرة النيران
هم آل طه الطاهرون ومن لهم ... شأن عظيم يا له من شان
قاموا وصاموا في الهواجر والدجى ... وترنموا في الليل بالقرآن
فإليهم تسعى الوفود وترتجي ... منهم قرى الإكرام للضيفان

آل النبي ورهطه وأصحابه والتابعون له على الإحسان
هم آل بيت المصطفى علم الهدى خير الورى المبعوث من عدنان
صلى عليه الله ما سرت الصبا وتناغت الأطيار في الأغصان

المجلس التاسع والأربعون

في ذكر الموت والتفكر فيه

الحمد لله المتوحد بأنواع المصنوعات ، المتفرد باختراع المخلوقات ، المنزه عن التجسيم والتقسيم والسمات ، المتعالي عن الأشكال والأمثال والأماكن والجهات ، المقدس عن الأعيان والألوان والكيفيات ، الموصوف بقدم الأسماء والصفات ، القريب ممن دعاه لا بقرب المسافات ، المجيب لمن ناجاه بإخلاص الدعوات ، الذي يغفر الذنوب ويستر العيوب ويقبل التوبة عن عبادة ويعفو عن السئيات ، العالم بمكنون الأسرار ومصون الأفكار والخفيات ، الخبير فلا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات ، السميع فلا يعزب عن سمعه اختلاف الأصوات ، البصير فلا يعزب عنه دبيب النمل على الرمل في الظلمات ، الواحد الأحد فلا ثاني له في الكائنات ، الفرد الصمد المنزه عن البنين والبنات ، الباقي على الأبد ويفني كل أحد ويقضي عليه بالممات ، فسبحان مميت الأحياء محيي الأموات . بينما المرء يغترّ في دنياه بلذيذ الشهوات ، غرق في بحار الغفلات ، إذ أتاه الموت فجرّعه من مرّه كاسات ، وألقى عليه من غمه غمرات ، فغشيته من كربه سكرات ، وأورثه من شدته حسرات ، فرحل عما كان فيه من اللذات ، وأبكى الآباء والأمهات ، وأيتم البنين والبنات ، وجرت على مصائبه العبرات ، وحمل على الأعناق إلى الفلوات ، وصار في قبره من جملة الرفات ، وخلا بعمله من الحسنات والسيئات ، ولم ينفعه في لحده من بعده غير التقوى والطاعات ، وما قدم من برّ وصدقات ، وأسلف من صلوات ودعوات ، أفلا يعتبر العاقل بمصرع من قد مات ، وقد حوته القبور الدارسات ، أين العبيد والسادات ، فكيف يطمع في البقاء ، وقد قال صاحب الدلائل والمعجزات : « إن للموت سكرات » فانتبه مما أنت فيه يا أسير الغفلات ، وتزوّد للسفر الطويل فقد بقي وضربت للرحيل الكاسات :

قد مضى العمر وفات يا أسير الغفلات حصل الزاد وبادر مسرعاً قبل الفوات

فإلى كم ذا التعامي عن أمور واضحات وإلى كم أنت غارق في بحار الظلمات
لم يلن قلبك أصلا بالزواجر والعظات بينما الإنسان يسأل عن أخيه قيل مات
وتراه حمله سرعة للفلوات أهله يبكون عليه حسرة بالعبرات
أين من قد كان يفخر بالجياد الصافنات وله مال جزيل كالجبال الراسيات
سار عنها رغم أنف للقبور الموحشات كم بها من طول مكث من عظام ناخرات
فاغنم العمر وبادر بالتقى قبل الممات وأنب وأرجع وأقلع من عظيم السيئات
واطلب الغفران ممن ترتجي منه الهبات ثم نادي في الدياجي يا مجيب الدعوات
اعف عنا يا رحيما وأقلنا العثرات ما وجدنا من شفيع في مضيق الكربات
غير جاه المصطفى الها دي بهيّ المعجزات فعليه صلوات زاكيات طيبات

وعلى الآل جميعاً وصحاب طاهرات

عن عائشة رضي الله عنها قالت : « سمعت رسول الله ﷺ يصف ثواب المجاهدين ، وما أعد الله لهم من الأجر والفضل في الجنة ، فقلت : يا رسول الله أيكون لغير المجاهدين من أمتك مثل أجرهم ؟ فقال : نعم من يذكر الموت في كل يوم عشرين مرة » . وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من بيت إلا وملك الموت يقف على بابه كل يوم خمس مرات : فإذا وجد الإنسان قد نفد أكله وانقطع أجله ألقى عليه غم الموت ، فغشيته كرباته وغمرته سكراته . فمن أهل بيته الناشرة شعرها والضاربة وجهها والباكية لشجوها والصارخة بويلها . فيقول ملك الموت : ويلكم ممّ الفزع وفيم الجزع ؟ فما أذهبت لواحد منكم رزقاً ولا قرّبت له أجلاً ، ولا أتيته حتى أمرت ، ولا قبضت روحه حتى استأمرت ، وإن لي فيكم عودة ثم عودة حتى لا أبقي منك أحداً ، قال النبي ﷺ : فوالذي نفس محمد بيده لو يرون مكانه أو يسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم حتى إذا حمل الميت على نعشه رفرفت روحه فوق النعش ، وهو ينادي : يا أهلي ويا ولدي لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي جمعت من حله ومن غير حله ، ثم خلفته لغيري فالمال لكم والتبعة عليّ فاحذروا مثل ما حلّ بي » :

لو كلم الميت من يشيعه لقال لا تغتر فأنت أنا
قد كنت أرجو وغرني أملي عاجلني الموت ما بلغت منى
ما لي لغيري جمعته وبقي عليّ من وزره شقا وعنا
وهو بما قد جمعت في رغد يأكله لذة له وهنا
فاعتبروا يا ذوي العقول فقد شرحت حالي لكم وفيه غنى

[وقيل] : إن الموت له ألم لا يعلمه إلا الذي يعالجه ويذوقه ، وهو أشدّ من الضرب بالسيوف وأعظم ألماً من النشر والمناشير والقرض بالمقاريض ، لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم مع بقاء قوّة في البدن فلذلك يستغيث المضروب ويصيح بخلاف الموت فإن الميت ينقطع وتضعف قوته عن الصياح لشدة الألم والكرب على القلب ، فإن الموت قد هدّ كل جزء من أجزاء البدن وأضعف كل جارحة ، فلم يترك له قوة للاستغاثة . أما العقل فقد غشيته وسوسة ، وأما اللسان فقد أبكمه ، وأما الأطراف فقد أضعفها ويودّ لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح ولكنه ما يقدر على ذلك فإن بقيت له قوة سمع له عند نزع الروح وجذبها خوار وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه واربد حتى ترتفع الحدقتان إلى أعلى جفونه ، وترتفع الأنثيان إلى أعالي موضعهما وتصفرّ أنامله ويموت كل عضو منه على حدته . فأول ما يموت قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى تبلغ روحه الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها وتحيط به الحسرة والندامة . وروي « أن النبي ﷺ دخل على مريض فقال : إني لأعلم ما يلقى ليس في عرق إلا وهو يتألم بالموت على حدته » . وروي « أنه ﷺ لما احتضر كان عنده قدح من ماء يدخل يده فيه ويمسح وجهه ويقول : لا إلـه إلا الله إن للموت لسكرات » ، وفي رواية كان يقول : « اللهم هوّن عليّ سكرات الموت » ، وفي رواية : « أعني على سكرات الموت وفاطمة رضي الله عنها تقول : واكرباه لكربك يا أبتاه وهو يقول لا كرب على أبيك بعد اليوم » ذكره البخاري ومسلم ، وكان عليّ ﷺ يحرض على القتال ويقول : إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفس محمد بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موت على فراش . وقال شداد بن أوس : الموت أفظع هول في الدنيا والآخرة على المؤمنين وهو أشدّ ألماً من نشر المناشير وقرض المقاريض وغليان القدور ، ولو أن الميت نشر فأخبر أهل بألم الموت لما انتفعوا بعيش ولا التذوا بنوم . وروي أن موسى عليه السلام حين مات وصارت روحه إلى الله عز وجل قال الله عز وجل : يا موسى كيف وجدت الموت ؟ قال : وجدت نفسي كالعصفور حين يقلى على المقلى وهو حي فلا هو يموت فيستريح ولا ينجو فيطير . وفي رواية : وجدت نفسي كشاة تسلخ وهي حية وقال تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] . أي بالحق من أمر الآخرة حين ينتبه ويراه عياناً ، وأما مشاهدة ملك الموت وما يدخل على القلب منه من الروع والفزع فهو أمر قصرت عن كنهه عبارة كل فصيح وضاق عن سعة هوله كل فسيح ولم يعلم حقيقة ذلك إلا الذي يتراءى له في تلك الحال ، كما روي أن

إبراهيم الخليل عليه السلام قال لملك الموت : هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح الفاجر ؟ فقال : لا تطيق ذلك . قال : بلى قال له : فأعرض بوجهك عني فأعرض بوجهه عنه ثم التفت فإذا هو رجل أسود مهول ثيابه سود قائم الشعر منتن الريح يخرج لهيب النار من فيه ومن مناخره كالدخان ، فغشي على إبراهيم ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال : يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر إلا صورة وجهك لكفاه . ونظر إبراهيم عليه السلام إلى إناس يبكون على ميت لهم . فقال : لو بكيتم على أنفسكم لكان خيراً فإن ميتكم قد نجا من ثلاثة أهوال : وجه ملك الموت وقد رآه ، ومرارة الموت وقد ذاقها ، وخوف الخاتمة وقد أمنها ، فينبغي للعاقل أن يبكي على نفسه فهو أولى به ويعلم أن الموت خلفه وفي طلابه :

ليبك على نفسه العاقل لينتبه النائم الغافل يؤمل ذو الجهل آماله
فيفجؤه موته العاجل علام الجدال وهذا المآل وفيم القتال ولا طائل

ودنياكمو هي معشوقة ولكن حقيقتها باطل

وبرق ولكنه خلب وودق ولكنه ماحل وطيف ولكنه هاجر
وشهد ولكنه قاتل منام وأضغاث أحلامها أماني يؤملها الجاهل
فأين الشريف وأين الضعيف وأين المفضل والفاضل وأين الشجاع وأين الجبان
وأين المهذب والعاقل فكل سيشرب كأس الفنا وكل بهذا الفنا نازل

[إخواني] لا واعظ كالموت وما تتعظون ، وهو طالب لكم وأنتم عنه غافلون ، أتظنون أنكم في الدنيا مخلدون ، ولا بد من ورود كأس المنون ، تزوّدوا للرحيل فقد سارت القافلة ولا تغتروا بزهرة الدنيا فإنها زائلة ، وإياكم والآمال الباطلة ، فإن سمومها قاتلة ، إلى متى أنت مقيم على غفلتك وجهلك ، إلى متى تغترّ بمالك وأهلك ، إلى متى تؤثر الدنيا الدنيئة وهي تسعى في قتلك ، إلى متى تنسى لحاقك بمن كان من قبلك ، إلى متى لا يؤثر فيك كثير عتابك وعذلك ، إلى متى لا تذكر رحيلك عن جميع ما تملك ؟ حتى متى لا تفهم المواعظ ؟ وقد قيلت من وأجلك تيقظ يا غافل فكم لعب الهوى بمثلك :

يا نفس مالك عن حمامك غافله وأراك في ثوب الأماني رافله
دنياك منزلة أقمت بظلها فتزوّدي منها فإنك راحله
إن لم يزل عنك الذي تحوينه منها وإلا كنت عنه زائله

قوله تعالى : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر : ١ ـ ٢] يعني شغلكم

التكاثر بالأموال والأولاد عن الاستعداد للموت . قال رسول الله ﷺ : « استعيذوا بالله من عذاب القبر » . ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : ٣] عند سكرات الموت وأهواله ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : ٤] بعد الموت معاينة منكر ونكير في القبر .

[وروي] عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال : إن المؤمن إذا وضع في القبر وسع عليه قبره سبعين ذراعاً طولاً ومثله عرضاً وتنثر عليه الرياحين ويستتر بالحرير فإن كان معه شيء من القرآن كفاه نوره في قبره ويكون مثله كمثل العروس ينام فلا يوقظه إلا أحب أهله إليه فيقوم من نومته كأن لم يشبع منها ، وإن الفاجر والفاسق والكافر يضيق عليه قبره حتى تدخل أضلاعه في جوفه ويرسل عليه حيات كأعناق الإبل فتأكل لحمه حتى لا تذر على عظمه لحماً وترسل عليه شياطين صم بكم عمي معهم مطارق من حديد فيضربونه بها لا يسمعون صوته فيرحمونه ولا يبصرون ما هو فيه فيرقون له ويعرض على النار بكرة وعشياً . وقال رسول الله ﷺ : « يقول القبر للميت حين يوضع فيه : ويحك يا ابن آدم ما غرّك بي ألم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ؟ ما غرّك بي إذ كنت تمرّ بي ، وإن كان صالحاً أجاب عنه مجيب القبر فيقول : أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر فيقول القبر إذاً أتحول عليه روضة من رياض الجنة ويعود جسمه نوراً وتصعد روحه إلى الله عز وجل » . وعن كعب ﷺ أنه قال : ما من يوم إلا والقبر ينادي خمس مرات بهذا الكلمات : يا ابن آدم تمشي على ظهري ومصيرك في بطني ، يا ابن آدم تضحك على ظهري ، ثم تبكي في بطني ، يا ابن آدم تأكل الحرام على ظهري وتأكلك الديدان في بطني ، يا ابن آدم تفرح على ظهري وتحزن في بطني .

[وسئل] بعض الزهاد : كيف حالك ؟ فقال : كيف يكون حال من يريد سفراً بلا زاد ويقدم على ملك الموت غداً بغير حجة ويسكن قبراً موحشاً بلا مؤنس :

أيا من غدا في باطن نازلاً ... أتانس بالدنيا وأنت غريب
وما الدهر إلا مثل يوم وليلة ... وما الموت إلا نازل وقريب
كأنك والأيام ما بين أن ترى ... تساء بمال أو يبين حبيب

[وروي] أن عثمان بن عفان ﷺ عنه وقف على قبر فبكى فقيل له : إنك تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي من هذا ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد » :

حق على من يكون الموت مورده وظلمة القبر بعد الموت ملحده
أن لا يسوى قط إلا خائفاً وجلاً طوى السرور وأقصاه وأبعده
يبكي لما قد جنى في الدهر من زلل بكاء من كان جسر النار مرصده

يا هذا احذر أن تصبح عن طريق الهدى حائراً ، أو أن تعاهد على التوبة فتضحى غادراً ، وقم إلى إخلاص نفسك مبادراً ، وكن لعواقب الأمور في كل حال ذاكراً ، ولازم خدمة مولاك حامداً له شاكراً ، واحذر أن تكون عند ربح المتقين خاسراً ، فكأني بك وقد أقبل إليك الموت متسلطاً قاهراً :

آه للموت زائرا قد أباد العشائرا كم سعى الدهر باطنا ورأيناه ظاهرا
ومحا من محاسن قد طواهن سائرا كم جمال بقهره قد أحل المقابرا
ثم أفنى أوائلا وأباد الآواخرا آه للناعم النضير طوى منه ناظرا
آه للغضن إذ سما حله الموت كاسرا كم أتى من أكابر وأباد الأصاغرا
فاز من كان خائفا منه في الأمن حاذرا واتقى الله حيثما منه قد كان حاضرا

وجاء في الأثر : إن الروح إذا خرجت من الجسد ومضى عليه سبعة أيام تقول : يا رب ائذن لي حتى أنظر إلى جسدي ما حاله ؟ فيقال لها : اذهبي فتأتي الروح إلى القبر فتنظر إليه من بعيد فتراه متغيراً يسيل من منخره ماء ، ومن فمه ماء ، ومن عينيه ماء ، ومن أذنيه ماء ، فكأنه في وسط لجة فتقول له صرت إلى هذا الحال بعد نضارة جسمك ثم تمضي حتى إذا كان بعد سبعة أيام أخر تقول : يا رب ائذن لي حتى أنظر إلى جسدي ما حاله ؟ فيقول الله تعالى : اذهبي فتأتي إلى القبر فتنظر إليه من بعيد فتراه قد تغير ، وقد صار الماء الذي في فيه صديداً والذي في عينيه قيحاً والذي في أنفه دماً ، فتقول له صرت إلى هذا الحال ثم تمضي حتى إذا كان بعد سبعة أيام قالت : يا رب ائذن لي حتى أنظر إليه هذه المرة ما حاله ؟ فيقول لها : اذهبي فتأتيه فتنظر إليه من بعيد فتراه وقد صار الصديد دوداً وقد سقطت حدقتاه على وجهه والدود يدخل في فيه ويخرج من منخره ، فتقول صرت إلى هذا الحال بعد النعيم والدلال .

[إخواني] انظروا إلى أحوالكم كيف تصيرون بعد الموت ، وكيف تطلبون العود وقد حصل الفوت ، فأنتم عما يراد بكم غافلون ، وفي بحار الأمل غارقون ، أصم في الآذان عن النصائح ، أعمي في القلوب عن جميع المصالح ؟ تالله ما ينفع المرء في قبره غير التقى والعمل الصالح :

الموت بحر موجه طافح يحار فيه العائم السابح يا نفس إني ناصح فاقبلي

مني فإني مشفق ناصح لا ينفع الإنسان في قبره إلا التقى والعمل الصالح

[وقيل] لإبراهيم عليه السلام : عظنا بما ينفعنا . قال : إذا رأيتم الناس مشغولين بأمر الدنيا فاشتغلوا بأمر الآخرة ، وإذا اشتغلوا بتزيين ظواهرهم فاشتغلوا بتزيين بواطنكم ، وإذا اشتغلوا بعمارة البساتين والقصور فاشتغلوا أنتم بعمارة القبور ، وإذا اشتغلوا بعيوب الناس فاشتغلوا بعيوب أنفسكم ، وإذا اشتغلوا بخدمة المخلوقين فاشتغلوا بخدمة الخالق رب الخلائق أجمعين ، فتيقظ يا هذا لنفسك قبل أنا يناديك المنادي ، وتدرّع دروع الصبر وجاهد الأعادي ، وشمر في طلب خلاصك واقطع علق التمادي ، وعليك بما يفيدك وما تنجو به يوم التنادي :

فمالَك ليس يعمل فيك وعظ ولا زجر كأنك من جماد ستندم إن رحلت بغير زاد
وتشقى إذ يناديك المنادي فلا تأمن لدى الدنيا صلاحا فإن صلاحها عين الفساد
ولا تفرح بمال تقتنيه فإنك فيه معكوس المداد وتب مما جنيت وأنت حي
وكن متنبهاً قبل الرقاد أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

وقال رسول الله ﷺ : « يهرم المرء ويشبّ معه اثنان الحرص وطول الأمل » فالحرص أحد المهلكات وقال ﷺ : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب » . وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : « أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي وقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعدّ نفسك من أصحاب القبور » يا حريصاً على ارتكاب الآثام وعن هجوم الموت غافل ، وقد تحققت مفاجأة الأجل فما الحرص على المال والزلل فعل عاقل ، تعجل الذنب نقداً وتؤخر التوبة إلى قابل ، أما علمت أن مطل الغني ظلم وقد أغناك الله بالشباب والصحة والفراغ وأنت بالتوبة تماطل ؟ أين من ملك الدنيا ودوّخ الجبابرة وقاد الجحافل ، أين التائه المعجب على العباد كبراً ، أين القاتل أين الصائل ؟ رشقتهم والله المنون بسهامها فأصابت المقاتل ، وصرعنهم بعد الفراش والنمارق بين الصفائح والجنادل :

يا عاشق الدنيا أما في حادث الأيام عاذل أنت القتيل صبابة
بحطامها والحب قاتل خيمت في ظل المنى والعمر يا مغرور راحل
وركنت للدنيا وكم غدرت بذي ودّ مواصل أمع التنغص والأذى
يلتذ في دنياه عاقل قف واعتبر بمنازل درست وقد كانت أواهل
أين الذين تدبروا الد دنيا وما فازوا بطائل قادوا الجيوش وذللوا
أسد الشرى بظبي النواصل فجرت عليهم حادثا ت الدهر فانقلبوا كلائل

قـــد فصـــلت أوصـــالهم بـــين الصـــفائح والجنـــادل

قوله عزّ وجل : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ : [ق : ١٩] أي معالجة سكرات الموت ورؤية ملك الموت وأن يكشف للعبد من مقعده في الجنة أو النار فهذه أمور مهولة ، وذلك عند مجيء سكرات الموت وهو الحق الذي ذكره النبي ﷺ من الإيمان بالغيب ، ثم بعده سؤال منكر ونكير ، وهو أوّل ما يلقى الميت إذا ألحد ، وأما سكرة الموت فهي ما تقدم ذكره لأن للموت سكرات ، وسكرات الموت بحسب كل شخص بما فعل في دار الدنيا ؛ وسميت سكرة لأنها تذهل العقول وتغيب الذهن كحال السكران في سكرته وذلك أن العبد تظهر له أعماله عند الموت من الحسن والقبيح وجزاء عمله ؛ فالمغتاب تقرض شفاهه بمقاريض من نار ، والسامع للغيبة يسلك في أذنيه نار جهنم ، والظالم تتفرق روحه بكل مظلوم ، وآكل الحرام يقدّم له الزقوم كذلك إلى آخر أفعال العبد كل هذه الحالات تظهر عند سكرات الموت ، فالميت يجوزها سكرة بعد سكرة وعند آخرها تقبض روحه ، وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يعني تحيد بطول الآمال والحرص على البقاء في الدنيا . وروي عن عيسى عليه السلام أنه مرّ على قبر سام بن نوح ، فقال له بنو إسرائيل : يا روح الله ادع الله أن يحيي لنا صاحب هذا القبر حتى نسمع منه حديث الموت ، فصلى عيسى عليه السلام عند قبره ركعتين ودعا الله تعالى أن يحيي سام بن نوح فأحياه الله تعالى فقام سام ينفض التراب عن رأسه وقد شاب رأسه ولحيته ، فقال له عيسى عليه السلام : ما هذا الشيب الذي لم يكن في زمانك ؟ قال : يا نبي الله سمعت النداء فظننت أن القيامة قد قامت فشاب رأسي ولحيتي من الهيبة . فقال له عيسى عليه السلام : منذ كم أنت ميت ؟ قال : منذ أربعة آلاف سنة وإلى الآن ما ذهبت عني سكرة الموت ولا مرارتها .

[**إخواني**] ما هذه الغفلة وإلى البلى المصير ؟ وما هذا التواني والعمر قصير ، وإلى متى هذا التمادي في البطالة والتقصير ، وما هذا الكسل وقد أنذرك النذير ، خلفك والله عن باب الحبيب سوء التدبير ، فإلى متى تتبهرج والناقد بصير :

هـــي المنيـــات والقبـــور ثم إلى ربنـــا المصـــير والنـــاس في غفلـــة نيـــام
أضـغاث أحلامهـم غـرور والعمر يمضي ولست تـدري مثـل سـفين بنـا تسـير

يـــا نفـــس مـــا ســـرّ فهـــو حـــزن لا تحســـبي أنـــه ســـرور
تـــذكري المـــوت واســـتعدي لـــه فقـــد جـــاءك النـــذير

[**إخواني**] تذكروا القيامة فالأمر شديد ، وبادروا بقية أعماركم فالندم بعد الموت لا يفيد ،

وأحضروا قلوبكم لفهم الوعد والوعيد ، وحاسبوا نفوسكم قبل أن تحاسبوا فعليكم رقيب عتيد ، وتأهبوا للموت فكأنهم به وقد أخذ الأحرار والعبيد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] أين أحبابكم الذي سلفوا ، أين أترابكم الذي رحلوا وانصرفوا ، أين أرباب الأموال وما خلفوا ؟ ندموا على التفريط فيا ليتهم عرفوا هول مقام يشيب في الوليد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ ، واعجباً كيف دعيت إلى الله فتوانيت ، وكلما دعتك المواعظ إلى الله أبيت وتماديت ، وكم نهاك مولاك عن غيك فما انتهيت ، يا من جسده حيّ وقلبه ميت ، ستعاين عند الحسرات والسكرات ما لا تريد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يا هذا كم أزعج الموت نفوساً من ديارهم ، وكم أباد البلى من أجساد منعمة لم يدارها ، وكم نقل إلى الحفائر أرواحاً بذنوبها وأوزارها ، وكم أذل في التراب خدوداً بعد نضارتها واحمرارها . فابك يا هذا على نفسك قبل أن تبكي فلا يفيد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ فانتبه يا هذا فالدنيا أضغاث أحلام ، واعلم أنها دار فناء لا تصلح للمقام ، ستفهم قولي بعد قليل من الأيام وما غاب عنك ستراه على التمام ، إذا انكشف الغطاء وتحقق الوعيد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ ويحك أما علمت أنك ترحل كل يوم مرحلة . أما علمت أنه يحصى عليك من أعمالك الخردلة ، وكم من مؤمل خانه في الحساب ما أمله ولم يبلغ من المقاصد ما يريد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يا مضيعاً عمره في الخسران ، يا مطفئاً بهواه نور الإيمان . متى تفيق من خمار الهوى أيها السكران ، أما آن لك الرجوع إلى الله أما آن ، كأنك قد أخذت بالأمان منه التقليد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يا معرضاً عن المولى إلى متى هذا الإعراض ، ذهب شبابك وولى في طلب الأغراض ، أما علمت ويحك أن عمرك في انقراض وقواك كل ساعة انتفاض ، فتزوّد لسفرك فالسفر والله بعيد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يا من يحضر مجالس الوعظ بجسده وقلبه في الأسباب ، يا من مضى أكثر عمره وما تاب ، يا من كسته المعاصي ظلمة الحجاب ، يا من أغلق الهوى في وجهه من التقوى كل باب ، نح على نفسك وعدّد فربما ينفعك النوح والتعديد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أما علمت أنا الموت لك بالمرصاد ، أما صاد غيرك ولك سيصطاد ، أما بلغك ما فعل بسائر القصاد ، أما حذرك غفلتك عنه في كل مواطن وواد ، أما سمعت قول الملك المجيد : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ

مِّنْهُ تَحِيدُ ﴾ فيا مقبلاً على كل ما يضرّه ومعرضاً عما يفيد ، ويا مضيعاً عمره ، وهو يحصى عليه برقيب وعتيد ، أين المتحصنون بكل حصن منيع وقصر مشيد ، أين المتكبرون من كل جبار عنيد ؟ أما أخرجهم الموت من قصورهم ، وقطع حبل أملهم المديد ، أما أصبح منهم ذو الشدّة والبأس في ظلمة الأرماس وحيد ، أما سمعوا قول الملك المجيد : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ .

[كان وكان]

اغنم وجودك وازرع عسى تحصد فالموت يأتي بغتة وليس عنه محيد
من لك إذا ما ملك من كان يهوى وحزت لحدك مفلس غريب
إن كنت يا صاح يوم القيامة تتنبه إذا رأيت الخلائق في موقف التهديد
يقال اقرأ كتابك كفى بنفسك ولقد أتيت الموقف بسائق وشهيد
فدع دموعك تجري قبل أن يقال لمن ألم تكن قبل تدري أن الحساب شديد
ترى الخلائق من هول ما قد وليس يعلم من هو منهم شقي وسعيد
فمن أطاع المولى فذاك منه قد قرب ومن عصاه وخالف فذاك منه بعيد
كل القلوب قد لكن قلبك قد قسا كأن قلبك أضحى بين القلوب حديد
ويحك فنبه قلبك واسمع كلامي عسى قساوة قلبك تلين بالتشديد
وإن تخف في القيامة من شؤم ذنبك فلذ بجاه الهادي وصاحب التأييد
فهو النبيّ المشفع فيمن عصى من في يوم يسجد وتظهر بدائع التحميد
يقال ارفع رأسك واشفع تشفع ثم يسمع وسل تعط ما تشتهي وتريد
صلى عليه وسلم رب السموات ما سارت النوق قطع الفلا والبيد

اللهم كن لنا إذا أودعنا الألحاد ، وجفانا الأهل والعوّاد ، وتخلت عنا أهل الصفا والوداد ، ولم يبق إلا عفوك يا كريم يا جواد ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس الخمسون

في ذكر الصالحات التائبات الصابرات من النساء

الحمد لله الذي تعزز في ربوبيته أزلاً وأبداً ، وتقدّس في سرمديته فلم يزل فرداً صمداً ، الذي لا تدرك سرمديته أبداً ، ولا تحصى الأفكار لفرديته عدداً ، جلّ عن الأضداد والأنداد ،

والصاحبة والأولاد ﴿ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ : [الجن : ٣] فمن شبهه أو مثله فقد استحق عذاباً رصداً . ومن ألحد في وصفه فلن تجد له من دونه ملتحداً . ومن نظر إلى ساحل بحر التوحيد بعين التشبيه والتحديد مات حسرة وكمداً . ومن نظر بعين التنزيه والتحميد اطلع على غوامض الحقائق وحاز حكماً وزبداً ، فالعارفون طاشوا في بيداء معرفته فعاشوا عيش السعداء . والخائفون ذابوا بنار قهر سطوته فماتوا موت الشهداء . والمحبون قد أدير عليهم راح الارتياح في زجاجات المناجاة فعاشوا عيشاً رغداً . فلو رأيتهم وعليهم آثار القبول وقد كساهم التحول أثواباً جدداً . وسقاهم الذهول كأساً لا يستعذبون بعده مورداً . فعيونهم دامعة . وقلوبهم خاشعة . وأكبادهم تذوب كمداً . أولئك قوم أراد بهم ربهم رشداً . نظروا إلى الدنيا بعين اليقين فعلموا أن الإنسان لن يترك سدى . ففتحوا سمع اليقظة فسمعوا حادي الرحيل قد حدا . فخرجوا من ناديهم وعرجوا على حاديهم فإذا الدليل يناديهم : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ : [الليل : ١٢] . فأوّل قدم في سلوكهم أن خلع على صعلوكهم خلعة شرفوا بها على ملوكهم فخراً وسؤدداً حصلوا الزاد للسفر وحثوا رواحل السهر فلما هبت عليهم نسمات السحر أدركوا أرباً ومقصداً :

قد لاح نور الهدى من حبهم وبدا ... وقد تغنى حمام المنحنى وشدا
وقد تعطر عرف البان حين سرى ... من الحمى ورأى المشتاق ما قصدا
فيا رعى الله صبا هام من حرق ... ومغرماً بات يقضي ليله سهدا
يدعو إلى الله والأبصار هاجعة ... عساه يمنح من إرشاده رشدا
من قد أطاع النبي الهاشمي ومن ... رأى سنا هديه الوضاح حين بدا
هو البشير النذير المستضاء به ... من جود إحسانه عمّ الوجود ندى
صلى عليه إلّه العرش ما طلعت ... شمس وما سار سارٍ في الفلا وحدا

قوله عزّ وجلّ : ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء : ٣٤] قال ابن عباس رضي الله عنهما : فالصالحات قانتات : أي مطيعات حافظات للغيب : أي للفروج في غيبة الأزواج . وقيل : حافظات لسرهم بما حفظ الله . والمرأة إذا حفظت فرجها وصانت نفسها لزوجها ابتغاء مرضاة الله وطلب ثوابه فقد وجبت لها الجنة والكرامة على الله عزّ وجلّ لقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ : [المعارج : ٢٩] إلى قوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ : [المعارج : ٣٥] .

[وروي] عن بعض الصالحين أنه رأى جارية في البادية وهي تمشي وتعرج ، وليس عندها ولا معها أحد ، فقال لها : من أين أقبلت ؟ فقالت : من عند الحبيب ، فقال : وإلى أين ؟ قالت : إلى الحبيب ، قال : فما تستوحشين وحدك في هذه البادية والفلاة ؟ فرفعت صوتها ونادت بأعلاه : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ : [الحديد : ٤] ثم قالت : يا بطال من استأنس بالله استوحش ممن سواه ، ومن طلب رضاه صبر على قضاه :

يا مؤنس الأبرار في خلوتها يا خير من حطت به النزال من ذاق حبك لم يزل متلهجا
أنت الحبيب وما سواك محال أنشأتني ورحمتني وسترتني أحسن فأنت المحسن المفضال

ما لي سواك وأنت غاية مقصدي والكل أنت وما عداك ضلال
آنست قلبي يا حبيبي والمنى يا من له الإنعام والإفضال

[وعن عثمان الجرجاني] قال : خرجت يوماً من الكوفة أريد البصرة فرأيت في الطريق امرأة عليها جبة صوف وخمار من شعر وهي تمشي وتقول : إلهي وسيدي ما أبعد الطريق على من لم تكن له دليلاً ، وما أوحش الطريق على من لم تكن له أنيساً ، قال : فدنوت منها وسلمت عليها فردّت عليّ السلام وقالت : من أنت يرحمك الله ؟ فقلت : عثمان الجرجاني ، فقالت : حياك الله يا عثمان أين تريد ؟ قلت : البصرة ، قالت : وما تصنع فيها ؟ قلت : حاجة لي فقالت : يا عثمان هلا أعلمت صاحب الحاجة يوجه بها إليك ولا يتعبك ؟ قلت : ليس بيني وبينه تلك المعرفة ، قالت : يا عثمان وما الذي قطعك عن معرفته ؟ قلت : كثرة الذنوب ، قالت : بئس والله ما صنعت أما والله لو وصلت حبالك بحبله لتمسكت منه بأقوى سبب وقضى حوائجك من غير تعب ، فلما سمعت منها ذلك بكيت وقلت : أريد منك الدعاء ؟ فقالت : أعانك الله على طاعته وجنبك عن معصيته ، فلما عزمت على الانصراف أخرجت من جيبي دراهم كانت معي فقسمتها بيني وبينها . وقلت : استعيني بهذه على حالك ، فقالت : من أين لك هذه الدراهم ؟ قلت : أنا رجل أصعد إلى الجبل فأحتطب منه حطباً وأحمله على عنقي وأبيعه في أسواق المسلمين وأرتمق بثمنه ! قالت : نعم الكسب الحلال أحلّ ما أكل المرء من مكسب يده لكن يا عثمان لو صححت معاملة ذي الجلال ، واتكلت عليه حق الاتكال لكفاك مؤنة حمل الحطب من رؤوس الجبال ، قلت : فإذا لم يكن لي سبب فمن أين المطعم والمشرب ؟ قالت : يا عثمان أتريد أن أريك كيف صححت مع سيدي عقد التوكل عليه ؟ قلت :

بلى ، فمدت يديها وهمهمت بشفتيها . فإذا يدها مملوءة دنانير ، ثم قالت : خذ هذه يا عثمان ، فوالله ما طبع عليه اسم ملك ولا سطان ، واعلم أنك لو أحببت مولاك لأغناك عن سائر الخلق وكفاك :

توكل على الله الكريم فإنه ... سيأتيك بالرزق الكفاف وبالجزل
وسلم إلى مولاك أمرك إنه ... سيكفيك أسباب الكريهة والثقل
ومن يتوكل في الأمور جميعها ... على الله يحظى بالتباشير والفضل
ويلقي جميع الناس بالرحب والرضا ... ويحنو على الجيران والصحب والأهل
فذاك الذي قد أذهب الله همه ... وجازاه بالإحسان في القول والفعل
فللّه درّ القوم فازوا بقصدهم ... من الله رب العرش في العقد والحلّ
إذا كان حقاً راضياً بعذابهم ... فذلك أحلى عندهم من جني النحل
فسبحانه من عالم بصلاحهم ... ومن خالق فرد ومن حاكم عدل

فللّه درّهم من قوّام ، قاموا يناجون الحبيب والناس نيام ، بإدبار النهار وإقبال الظلام ، ويجتهدون في خدمة الملك العلام ، فلا جرم جاء مدحهم في الكتاب العزيز البديع الأحكام . فقال تعالى في محكم الآيات : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ : [الأحزاب : ٣٥] قيل كان في البصرة جارية يقال لها أسماء العابدة ، وكانت ذات حسن بديع وقدر رفيع حسنة العنين حلوة اللسان ، وكان مولاها ذا نعمة ويسار ، وسطوة واقتدار ، فمرت الجارية يوماً بمجلس صالح المرّي وهو يعظ وهو يعظ الناس فوقفت إلى جانب النساء تسمع وعظه وكان لموافقة الأقدار ، يتكلم في أهوال القيامة وصفة النار ، وما أعدّ الله فيها لأهلها من الأهوال والأنكال ، والسلاسل والأغلال ، فنظرت الجارية إلى الرجال والنساء وهم يتصارخون ويبكون فرقّ قلبها وطاش عقلها ولبها فأجرت الدموع وتزايد بها القلق والولوع ، فالتفت صالح المرّي إليها فرأى دموعها جارية فسأل عنها ، فقالوا : هذه أسماء الجارية فالتفت إليها بوجهه وقصدها برشق سهام وعظه ، وناداها : أيتها الصارخة برخيم صوتها أرى عليك خوفاً من الآزفة كأنك بعظيم جرمك عارفة ، وأنت من ذلك خائفة ، فقد أتعبت الحفاظ والكتبة سنين وسهرت في المعاصي حيناً بعد حين ، فكم من فتى برخيم صوتك فضحتيه ، وبحسنك وجمالك قد فتنتيه وبعملك القبيح أسهرتيه ، وعن طاعة ربه وصلاته شغلتيه ، فحفاظك بسوء فعلك يشهدون ، ومن قبيح آثامك يضجون ، فبادري بالتوبة قبل حلول الندم ،

والخوف قبل زلة القدم ، وابكي على نفسك ومصابك ، لقد كانت السبحة والمحراب أولى بك ، فقالت : يا صالح إني كنت فيما مضى جاهلة غافلة ، وعن صلاح حالي ذاهلة ، ولم أعلم أن الأمر يكون هكذا ، بل كان سيدي يحب مني الغناء واختلاف الألحان على طول المدى ، وإني تائبة إلى الله عز وجل لم أنطق منه بشيء أبداً ، فقال صالح : يا أسماء اعلمي أنه من رفع صوته بالغناء ، وأصر على معصية المولى كان مأواه ناراً سوداء ، تذيب الأجسام والقوى وتورثه الذل والعناء فنادت : يا صالح قد برح وذهب الباطل واختفى ، وجاء الحق وقرب الوفاء ثم ذهبت إلى منزلها فلقيت غلاماً كان لمولاها ، فقالت له : ياغلام أنت تعلم أني كنت عليك مشفقة فاكتم عليّ أمري وخذ ثيابي هذه وأعطني جبتك ولا تكشف لأحد سري فخلعت ما كان عليها ولبست جبة الغلام وقطعت شعرها ودخلت منزلاً خفياً من منازل مولاها فصارت تقوم الليل وتصوم النهار وتتضرع في الأسحار بالبكاء والاستغفار . هذا ومولاها يطوف عليها الأماكن وهو حزين على فراقها فلما خالطها الاصفرار والذبول واكتست أثواب النحول أقبلت إلى مولاها وقد أنحلها الصيام والقيام وأطفأ حسنها الوجد والغرام فسلمت عليه فرد عليها السلام وقال لها : من أنت ؟ فقالت : أنا سرور قلبك وراحة سرك ولبك ، أنا جاريتك أسماء ، فقال لها: وما الذي بلغ بك إلى هذه الحال ؟ قالت شؤم المعصية والخوف من جهنم وما فيها من الأهوال . فقال : والله لئن لم ترجعي عن هذا الأمر وتلبسي ثيابك وتتركي التشويه بنفسك لأوثقنك كتافاً ولأذيقنك أنواع العذاب . فقالت : يا سيدي إن ضربك يفنى وعذاب مولاي لا ينقطع ولا يفنى أبداً فاصنع ما شئت ، فلما سمع ذلك من مقالها ، أمر الغلمان فشدوا وثاقها وضربها بالسوط ضرباً شديداً فرفعت رأسها إلى السماء ونادت : يا عظيم العظماء ، يا من له الأسماء الحسنى ، ويا مولى كل مولى أغثني وأجرني يا مجير الهلكى ، ومغيث المكروبين في السر والنجوى ، فلما رفع السوط ليضربها خدرت يده وأحس بمن جذبه من وراءه فالتفت فلم ير أحداً ، وإذا بمناد يناديه : يا عدو الله خل عن ولية الله فخر مغشياً عليه ، والدم يسيل على يديه ، فقامت أسماء تمسح الدم عن يديه ، وتقول له : يا مسكين عليك بطاعة مولاك وتب من ذنوبك وخطاياك ، فلما أفاق قال لها : يا منية النفس ما ظننت أنك وصلت إلى هذه المنزلة فوالله لا خالفت لك طريقاً ولا برحت لك ما عشت رفيقاً ، ثم اتفقا على العبادة والطاعة ورضيا من دنياهما بالقناعة :

للّـــه درّ الســـادة العبـــاد في كـل كهـف قـد ثـووا ووادي

ألـوانهم تنبيـك عـن أحـوالهم ودمـوعهم عـن حرقـة الأكبـاد
كتموا الضنى حفظاً لهم وتحملوا سـقم الهـوى ومشـقة الأجسـاد
هجـروا المراقـد في الظـلام لـربهم واسـتبدلوا سـهراً بطيـب رقـاد
ورأوا علامـات الرحيـل فبـادروا تحصـيل مـا التمسـوا مـن الأزواد
فإذا استمال قلوبهم داعـي الهـوى ذكـروا البلـى في ظلمـة الألحـاد
نظـروا إلى الـدنيا تغـر بأهلـها بوصـالها وتكـر بالإبعـاد
فتجنبوهـا عفـة وتزهـداً واسـتهونوا بالأهـل والأولاد
ومضوا على منهاج صحب نبيهم فنجوا غـداً مـن هـول يـوم معـاد

[إخواني] إذا كان النساء عملن لهن همة كالرجال ، وقصدن باب ذي الجلال ، وظهر منهن صالح الأعمال حتى حسنت منهنّ الأحوال ، وبلغن المقاصد والآمال ، فكيف حالك أيها البطال ، المصرّ على قبائح الأفعال ، المسوّف بالتوبة بكثرة الإهمال . قال السريّ السقطي : أرقت ليلة فلم أستطع الغمض فيها فقلت في نفسي : أخرج إلى المقابر لعلّ برؤية القبور والتفكر في البعث والنشور ، يزول همي وغمي . فخرجت إليها فما وجدت قلبي منشرحاً إليها . فقلت : أدخل الأسواق لعلّ باختلاط الناس يزول عني الباس ، ففعلت ذلك فما انشرح قلبي هنالك ! فقلت : أدخل إلى البيمارستان وأنظر إلى المجانين وإلى أفعالهم لعي أعتبر بأحوالهم فدخلت إليه فوجدت قلبي مقبلاً عليه فقلت : إلـهي وسيدي إلى ههنا سيرتني ولأجل منامي أيقظتني فنوديت في سري : ما أتينا بك إلى هذا المكان إلا ولنا فيه نبأ وشان . قال السري : فتقدمت إلى مكان المجانين فرأيت فيه جارية مصفرة اللون ويدها إلى عنقها مغلولة ، وهي بذكر الله مشغولة ، فسمعتها تنشد وتقول :

أعيذك أن تغل يدي بغير جناية سبقت تغل يدي إلى عنقي وما خانت ولا سرقت
وبين جوانحي كبد أحسّ بها قد احترقت وحقك يامنى قلبي يميناً برة صدقت
لـئن قطعتـها قطعـاً غرامـاً فيـك مـا نطقـت

قال السريّ : فقلت للقيم على المجانين : ما هذه الجارية ؟ فقال : جارية اختلّ عقلها فحبسها مولاها فلما سمعت الجارية كلامه تنهدت وأنشأت تقول :

معشر الناس ما جننت ولكن أنا سكرانة وقلبي صاحي قد غللتم يدي ولم آت ذنبا
غير هتكي في حبه وافتضاحي أنـا مفتونـة بحـب حبيـب لست أبغي عن بابه من براح

فصلاحي الذي رأيتم فسادي وفسادي الذي رأيتم صلاحي

قال السري : فلما سمعت كلامها أبكاني وأقلقني وأشجاني ، فلما رأت دموعي تنحدر على وجهي قالت : يا سريّ هذا بكاؤك على صفته فكيف لو عرفته حق معرفته ؟ فقلت : يا لله العجب من أين تعرفني هذه الجارية ؟ ولم يكن بيني وبينها معرفة سابقة ، فقالت : يا سريّ ما جهلت منذ عرفت ولا فترت منذ خدمت ، ولا قطعت منذ وصلت ، ولا حجبت منذ وقفت ، وأهل الدرجات يعرف بعضهم بعضاً ثم أنشأت تقول :

تحقق حق الحق في نور باطني فأصبح قلبي للحبيب مصافيا
قدمت على وصف وصفت لسيدي وهل ينعت العبد الضعيف الموالیا

فقلت : يا جارية أراك للمحبة تذكرين ، وللوجد تظهرين ، فلمن تحبين ؟ فقالت : لمن تعرّف إلينا بآلائه ، وتحبب إلينا بنعمائه ، وجاد علينا بجزيل عطائه ، فهو قريب إلى القلوب ، مفرج لكروب حليم على من عصاه ، قال : فقلت لها : من حبسك في هذا المكان ، فقالت : حاسدون ومبغضون تعاونوا عليّ ورموني بالجنون ، وهم أحق بهذا الاسم مني ثم أنشدت تقول :

يا من رأى وحشتي فآنسني بالقرب من وصله فأنعشني
يا ساكني لا خلوت من سكني دهري ويا عدتي على الزمن
أوحشني ما فقدت منه فقد عاد بإحسانه يقربني
وعاد أيضاً وجاد منعطفاً كذاك منذ كنت حين عودني
حسبي من الكون من شغفت به أصحبه مؤنساً ويصحبني
وكنت في غفلة فنبهني وكنت في رقدة فأيقظني

فقلت لها : ما الاسم ؟ فقالت : دع الاسم عنك يكفيك فيما سمعت يغنيك ، فبينما نحن كذلك إذا أقبل سيدها ، فقال للموكل بها : أين تحفة ؟ فقال : قد دخل عندها الشيخ السريّ فكلمها بكلام أصغت إليه ، فدخل سيدها فرأى السري عندها فعظمه وقبل يده ، وقال : يا سيدي لقد رحمت ببركتك ، فقال له السري : أي شيء أنكرته منها ؟ فقال : يا سيدي هذه جارية تضرب بالعود فأعجبتني فاشتريتها بجميع مالي ، وهو عشرون ألف درهم لفرط حسنها وحسن ضربها بالعود وأملت أني أربح فيها مثل ثمنها فدخلت عليها في بعض الأيام والعود في حجرها وفي تغني وتنشد وتقول :

وحقك لا نقضت الدهر عهداً ولا كدرت بعد الصفو ودا
ملأت جوانحي والقلب وجداً فكيف أقر أو أسلو أو أهدا
فيا من ليس لي مولى سواه تراك رضيتني في الناس عبدا

فلما فرغت من غنائها بكت طويلاً وضربت العود في الأرض فكسرته وجعلت تهيم وتصيح وهي ذاهلة العقل فاتهمتها بمحبة المخلوق ثم كشفت عن حالها فلم أجد لذلك أثراً ، فقال لها السري : يا جارية أهكذا جرى ؟ فأنشأت تقول :

خاطبني الحق من جناني فكان وعظي على لساني قربني منه بعد بعد
وخصني منه واصطفاني أجبت لما دعيت طوعا ملبياً للذي دعاني

وخفت مما جنيت قدماً فوقع الحب بالأماني

قال السري لسيدها : أطلقها وعليّ ثمنها أنا أزنه لك فصاح سيدها وقال : وافقراه من أين لك ثمن هذه الجارية فقلت : لا تعجل تكون في هذا المكان حتى أزن لك ثمنها . قال السري : فمضيت إلى منزلي وعيناي تذرفان بالدموع وقلبي بسببها موجوع وبتّ ليلتي أتضرع إلى الله عز وجل وأتوجه إليه وأتوكل في قضاء حاجتي عليه ، فلما كان وقت السحر إذا بقارع يقرع الباب فقلت : من بالباب ؟ فقال : حبيب من الأحباب ، جاء في سبب من الأسباب ، ومن عند الملك الوهاب ، ففتحت له الباب فإذا هو شاب حسن الثياب نقيّ الأثواب ، ومعه خادم وشمعة وخمس بدر على رأس جمال . فقلت : من أنت يرحمك الله ؟ فقال : أنا أحمد بن المثنى قد أعطاني الجبار وما بخل عليّ بالعطاء ورزقني من الأموال ما يعجز عن حمله الرجال فبينما أنا نائم إذ هتف بي هاتف من قبل الحق تعالى فقال لي : يا أحمد هل لك في معاملتنا ؟ فقلت وقد زال النوم عني : ومن أولى بذلك مني ؟ فقال : احمل إلى الشيخ السري خمس بدر يعطيها لمولى تحفة ليفك أسرها من الرق ، وتحظى منا بالعتق ، فلنا بها عناية ، ولطف ورعاية ، فحملت إليك المال وأطلعتك على الحال ، قال السري : فسجدت شكراً لله عزّ وجل ، فلما صلينا الصبح وأضاء النهار أخذت بيد أحمد ومضينا إلى البيمارستان ، وإذا الموكل بها يلتفت يميناً وشمالاً فلما رآني ، قال : مرحباً بك ادخل إليها فإنها عليك لهفانة ولها عند الله حرمة ومكانة ، فإنه البارحة أتاني هاتف وقال لي :

إنها مني ببال ليس تخلو من نوالي قربت ثم تسامت وعلت في كل حال

فانتبهت وحفظت ما قاله الهاتف ، وكررته حتى رأيتكم . قال : فدخلنا عليها فسمعناها تنشد وتقول :

قد تصبرت إلى أن عيل في حبك صبري قد كتمت الوجد لكن
ليس يخفى عنك أمري ضاق من قيدي وغلي وامتهان فيك صبري
إن تكن عني راض لا أبالي طول دهري أنت لي خير أنيس
يا منى سؤلي وذخري من ترى يعتق رقي ويفك اليوم أسري
غيرك اللهم ربي أنت لي كاشف ضري

قال السريّ : فبينما هي تنشد إذ أقبل مولاها ، وهو يبكي وينتحب فقلت له : لا بأس عليك قد أتيناك بمالك الذي وزنته في الجارية وتربح خمسة آلاف درهم . فقال : لا والله ، فقلت : تربح عشرة ، فقال : لا والله ، فقلت : تربح المثل ، فقال : لا والله ولو أعطيتني الدنيا بما فيها لما قبلت منها شيئاً هي حرة لوجه الله تعالى ، فقلت له : أخبرني ما الخبر ؟ فقال : يا أستاذ أتاني آت البارحة في المنام فوبخني في الملام ، وأغلظ عليّ في الكلام ، وقال : تهين ولية الله يا عدوّ الله فانتبهت مرعوباً مذعوراً قد هانت عليّ الدنيا وخرجت عن جميع ما أملكه وأنا هارب إلى ربي . ثم بكى وخرج على وجهه هائماً . قال السريّ : فالتفتّ إلى ابن المثنى فرأيته يبكي وينتحب ودموعه تجري على وجنتيه ، وقد ظهرت آثار القبول عليه ، فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال : ما رضيني مولاي لما ندبني إليه ولا وجدت لمالي قبولاً بين يديه ، أشهدك أني قد خرجت عنه وهو صدقة لوجه الله البديع ولجلاله الرفيع ، فقلت : ما كان أعظم بركات تحفة على الجميع ، ثم قامت تحفة فنزعت ما عليها ولبست جبة صوف وخماراً من شعر وخرجت هائمة على وجهها فخرجنا معها وهي تنشد وتقول :

هربت منه إليه بكيت منه عليه وحقه وهو مولى لا زلت بين يديه
حتى أنال وأحظى ما أرتجيه لديه

فما زلنا نتبعها حتى خرجت إلى ظاهر المدينة وهي تنشد وتقول :

يا سرور السرور أنت سروري يا حياة النفوس أنت حبوري
أنت ناري وجنتي ونعيمي وأنيسي وأنت نور النور
كم ترى يصبر المحبّ على البعـ ـد وكم يلبث الهوى في الصدور

قال السريّ : ثم مضت حتى غابت عنا ، ثم أتى مولاها وصحبني ، وكذلك ابن المثنى برهة من الزمان إلى أن توفي سيدها وقضى نحبه وبقيت أنا وابن المثنى فعزمنا على الحج إلى بيت الله الحرام فبينما نحن نطوف بالكعبة ، وإذا بصوت مقروح من كبد مجروح ، وهو ينشد ويقول :

قد تهتكت بحبك كيف لي منك بقربك فترفق بفؤاد يشتكي شدة بعدك
خبت يا نفس إذا آ خذك الله بذنبك فسلي العفو جهرا والرضا من عند ربك

قال السريّ : فاتبعت الصوت فإذا امرأة كالخيال ذاهلة العقل والبال . فلما رأتني قالت : السلام عليك يا سريّ ، فقلت : وعليك السلام من أنت ؟ فقالت : لا إلّه إلا الله وقع التناكر بعد المعرفة أنت إلى الآن محجوب وقلبك غير مسلوب . ثم قالت : أنا تحفة . فقلت لها : ما الذي أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق ؟ فقالت :

أفادني كل المنى وخصّ قلبي بالغنى وقد أزال سيدي عن باطني ثقل العنا
إن لم يداركني بما أرجو وإلا من أنا

فلما فرغت من إنشادها بكت وانتحبت وهاجت واضطربت . ثم رفعت رأسها وقالت : سيدي ومولاي فاز أهل التقى ونجا من أتقى ، وخاب من كان حظه الطرد والشقا ، فأسألك يا سيدي إلا ما قربت الوصل واللقا ، فقد توهمت عليك فخذني إليك فلا حاجة لي في البقا . ثم صرخت ووقعت على الأرض فحركناها فإذا هي ميتة فنظر إليها أحمد بن المثنى فطار قلبه وحار لبه . ثم بكى وانتحب واهتز واضطرب وصعد الزفرات ، وأظهر الحسرات ، ثم صرخ ووقع على الأرض فحركته فإذا به قد مات . قال السري : فجهزتهما وصليت عليهما ودفنتهما ورجعت ، وقد عجبت من حالهما وقرب آجالهما ، رحمة الله عليهما :

للّه رجال قد صبروا وبسعدهم سبق القدر قاموا للّه بأمر الله
ولولا الله لما قدروا كسروا بالذلّ نفوسهم جبروا والله وما كسروا
بحديثهم وبذكرهم المسك يفوح وينتشر وبقاع الأرض لفقدهمو
تبكي فيرقّ لها الحجر ناحوا أسفاً صاحوا لهفا باحوا وبحبهم اشتهروا
رفعوا قصصاً وشكوا غصصا ورسول القوم بها السحرا لو تسمع فرط أنينهم
في ليلهم لما اعتذروا صدقوا والله بما وعدوا ووفوا والله بما نذروا

جادوا بالروح فما أبقوا وكذا بالمال فلم يذروا
نظروا ذهلوا ويحق لهم من مثلهمو وبه ظفروا

فللّه درّهم من أقوام امتثلوا ما به أمروا ، ونظروا إلى الوجود بعين الاعتبار وتفكروا ، وتذكروا ما فعلوا من الزلل فتدبروا ، واعتبروا فأبصروا ، فهم الذين بمحبوبهم اتصلوا ، وعلى مطلوبهم حصلوا :

على أبوابكم عبد ذليل قليل الصبر ناصره قليل له أسف على ما كان منه
وحزن من صدودكمو طويل يمدّ إليكمو كف افتقار ودمع العين من أسف يسيل
يرى الأحباب قد وردوا جميعا وليس له إلى ورد سبيل وكيف يضام جاركمو وأنتم
كرام لا يضام لكم نزيل فإن يرضيكمو طردي وبعدي فصبري في محبتكم جميل
وحق ولائكم وشديد شوقي سلوّي عن هواكم مستحيل قطعت بحبكم أيام عمري
فلا أسلو وقد بقي القليل يحدثني الصبا عنكم حديثا يصح بنشره الجسم العليل
فأسكر من شذاها حين هبت وأنظر حيثما مالت أميل وتروى عن شفيع الخلق طرّا
حديثاً فيه للمضنى دليل هو المختار من كل البرايا هو الهادي البشير هو الرسول

عليه من المهيمن كل وقت صلاة دائماً فيها القبول

وصلاة الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبة وسلم .

المجلس الحادي والخمسون

في ذكر مولد النبي ﷺ بأوسع مما تقدم

الحمد لله المعروف بالقدم قبل وجود الوجود ، الموصوف بالكرم والفضل والجود ، المنزه في وحدانيته عن الأبناء والآباء والجدود ، المقدس في ذاته عن الصاحبة والمصحوب والولد والمولود العليم بأعداد الرمل والقطر وحبات السنبل والعنقود ، البصير بحركات الذر في البحر والبر تحت ظلام حنادس الليالي السود . الحكيم الذي فجر الأنهار من صم الجلمود ، وأخرج رطب الثمار من يابس العود ، لا تمثله الأفكار ولا تحويه الأقطار ، ولا ينهيه المقدار ، ولا تفنيه الأعصار ، ولا تدركه الأبصار ، وهو الواحد المعبود ، المعطي الذي لا مانع لما أعطى ، ولا دافع لما قضى ، الكريم الذي جاد لعبده ، بجزيل رفده وثوابه ، وكم رآه عن بابه معرضاً ، الحليم الذي يستر العاصي برحمته ، وقد رآه لمعصيته متعرضاً ، الغفار الذي يغفر الذنوب ، ويستر العيون ويعفو عما مضى ، القهار الذي قهر الجبابرة ، وكسر الأكاسرة ، وضرب بسهم